روايات عالمية للجيب

34



وصية الثلاثين ألف دولار

قصة : مارك توين
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

المؤلف



تكلمنا بشىء من التفصيل عن (مارك توين) فى الكتيب رقم ١٨ من سلسلة (فانتازيا) ، وأغلب الظن أن من يقرءون الكتيب الحالى قرءوا الكتيب الآخر ! لكننا - من أجل من جاءوا متأخرين - نحكى بعض الأشياء عن أهم وأعمق وأظرف أدباء أمريكا .. وهذا الكلام ليس من عندى ولكن سبق أن قاله الأديب الأمريكى العظيم (إرنست هيمنجواى) .

(صمويل لانجهورن كليمنس) هو الاسم الأصلى له .. ولد فى ولاية (ميسورى) فى نوفمبر عام ١٨٣٥ ، وسرعان ما انتقلت أسرته إلى قرية (هانيبال) التى خلدها فى الأدب الأمريكى ، وتوفى أبوه وهو فى سن

العاشرة ، ليبدأ الصبى كفاحه المضنى من أجل البقاء ، وهو الكفاح الذى رسم كل خط فى أدبه فيما بعد .. وأكثر شخصيات كتبه مارست الوجود فعلاً وقابلها فى مشوار حياته الشاق ..

عمل الصبى عامل طباعة ، ثم استجاب لحلم قديم طالما راوده ، هو أن يعمل على قارب بخارى فى نهر (المسيسبى) ، وكانت له مع النهر قصة حبٍ خلدها فى كتابه (الحياة على المسيسبى) ..

بعد هذا حارب فى أثناء الحرب الأهلية عام ١٨٦١ ، وهى بدورها خبرة لم ينسها قط : « الحرب هى قتل مجموعة من الأغراب الذين لا تشعر نحوهم بأى عداء ، ولو قابلتهم فى ظروف أخرى لقدمت لهم العون أو طلبته منهم .. »

بعد انتهاء الحرب عمل فى الصحافة فى جريدة محلية بـ (فرجينيا) ، واتخذ اسم (مارك توين) وهو مصطلح بحرى معناه (علَم على اثنين) يعود لأيام الملاحة فى (المسيسبى) ..

كانت حياة (مارك توين) سلسلة من المصائب ،

فهو الطفل المشاغب الذى لا يقول إلا ما يريده مهما كان قاسيًا أو مريرًا ، لذا ظفر بعداء الجميع .. وهو الاقتصادى الفاشل الذى يطارده الإفلاس فى كل لحظة ، وهو البائس الذى رأى أخاه يحترق فوق سفينة فى البحر ، حتى إن شعره شاب فى دقائق بعدها .. ولم تكن هذه آخر مآسى حياته ..

لقد مات ابنه الأول ، وتوفيت أعز بناته ، وتوفيت زوجته ..

كان لهذا أثره العجيب فى أدبه : لقد ازداد سخرية .. سخرية مريرة قاسية ، ولسان يصعب إسكاته مهما حاولت ، وبرغم هذا كله كان (توين) يحتفظ بالآراء الأكثر صراحة وقسوة لنفسه ، وكان يكتب فى كل موضوع كتابين : كتابًا يخفيه فى درجه ، وكتابًا يعرضه على الناس ..

وكانت شعبية (توين) تتزايد حتى إنه من الكتاب القلائل الذين كانوا يقدمون حفلات قراءة جماعية ، يشترى الناس التذاكر لها ، فقط كى يجلسوا فى مسرح كبير ليصغوا إلى (توين) وهو يتلو ما كتبه ..

إن قصصه هي مرآة صادقة شفافة للمجتمع الأمريكي .. شفافة إلى درجة أنها صارت عالمية ، وغدا الناس جميعاً يستمتعون بحق بأدب هذا الأديب العظيم ، مهما تباينت ثقافاتهم وألسنتهم ..

وفي عام ١٩١٠ توفي (توين) ، بعد ما رأى ـ في نفس الليلة ـ مذنب (هالي) يشق السماء ، وهو ذات المذنب الذي شق السماء ليلة ولادته ، وبشكل ما كان (توين) يتوقع ويرجو أن يمتد به الأجل حتى يراه مرة ثانية وأخيرة !

د . / أحمد خالد

أهم كتب (مارك توين) :

- الضفدع الوثاب من مقاطعة (كالافيراس) (١٨٦٥) .
- أبرياء بالخارج (١٨٦٩) .
- مغامرات توم سوير (١٨٧٦) .
- متشرد بالخارج (١٨٨٠) .
- الأمير والفقير (١٨٨٢) .
- الحياة على المسيسبي (١٨٨٣) .
- شمالي في بلاط الملك آرثر (١٨٨٩) .
- مغامرات هاكلبري فان (١٨٨٤) .
- نحو خط الاستواء (١٨٩٧) .
- الرجل الذي أفسد (هادليبرج) (١٨٩٩) .
- صلاة الجندي (١٩٠٥) .

المصادر :

ـ ديل كارنيجي : الخالدون . مطبوعات كتابي (٣) .

ـ فؤاد دوارة : هكذا كتبوا . الدار المصرية للتأليف والترجمة . يونيو ١٩٦٦ .

وصية الثلاثين ألف دولار ..

الفصل الأول

كانت (ليك سايد) مدينة صغيرة لطيفة ، بها خمسة أو ستة آلاف مواطن ، وبالنسبة للمدن الأخرى فى الغرب كانت جميلة ..

كانت بها كنيسة تتسع لخمسة وثلاثين ألف شخص كما هو معتاد فى أقصى الغرب ، حيث الجميع متدين ، وحيث تكثر الجماعات البروتستانتية ..

ولم يكن هناك فارق طبقى فى (ليك سايد) ، وعلى كل حال لم يكن أحد يعترف به .. كل واحد يعرف كل واحد وكلبه ، والصداقة الاجتماعية هى أساس العلاقات هنا ..

كان (صلاح الدين فوستر) يملك متجرًا ، وهو أعلى

الرجال دخلاً بالنسبة لمهنته . عمره خمسة وثلاثون عامًا وقد عمل فى هذا المتجر أربعة عشر عامًا ، وكان دخله حين تزوج أربعمائة دولار فى السنة ، ثم نما دخله بمقدار مائة دولار فى العام لمدة أربع سنوات ، ومن وقتها ظل راتبه ثمانمائة دولار فى العام ، وهو رقم جميل بحق ، وكان الجميع يعتقد أنه يستحقه .

أما زوجته الوفية (إلكترا) فكانت رفيقة طيبة ، إلا أنها ـ مثلى ـ حالمة غارقة فى الرومانسية . وبمجرد أن تزوجت ابتاعت فدانًا عند أطراف المدينة دفعت ثمنه خمسة وعشرين دولارًا هى كل ثروتها ، وكان هذا برغم أنها كانت طفلة فى التاسعة عشرة من عمرها وقتها ..

وفى هذا الفدان زرعت حديقة بالخضر ، وصارت الحديقة تقدم ربحًا مائة فى المائة كل عام . ومن راتب زوجها أودعت (إلكترا) ثلاثين دولارًا فى المصرف أول عام ، ثم ستين فى العام التالى ، ومائة فى الثالث ، ومائة وخمسين فى الرابع ..

وجاء طفلان فزادت النفقات ، إلا أن (إلكترا) ظلت قادرة على ادخار مائتين من الدولارات كل عام من دخل زوجها ، وبعد سبع سنوات استطاعت أن تبنى منزلاً جميلاً مريحاً بألفى دولار فى وسط المزرعة ، ودفعت نصف المال ..

وبعد سبع سنوات أخرى انتهت من الديون ، وصار لها فى المصرف مئات الدولارات التى تنمو باستمرار ..

وكان طفلاها ينموان سناً وجمالاً ، وكانت امرأة سعيدة بزوجها وطفليها ، وعند هذه النقطة تبدأ قصتنا ..

الفتاة الصغرى للزوجين هى (كليمنسترا) ـ ويدللونها باسم (كليتى) ـ فى الحادية عشرة من عمرها ، أما الاخرى فـ (جويندولين) التى يدللونها باسم (جوين) ، وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها ، وهى فتاة طيبة مليحة ..

كانت أسرة متعاطفة ، ولكل من أفرادها اسم تدليل ، فمثلاً (صلاح الدين) كانوا يدللونه (سالى) ، و(إلكترا) كانوا يدللونها (إليك) .

وفى الليل كانت الأسرة تجتمع فى غرفة المعيشة الهادئة الدافئة ، حيث يتخلص أفرادها من هموم العالم ، ويعيشون فى عالم الكتب الرومانسى ويحلمون .. يمرحون مع الملوك والأمراء واللوردات ، والأماكن النبيلة ، والقلاع الغامضة العتيقة ..

* * *

الفصل الثانى

الآن جاءتهم أخبار عظيمة .. أخبار مذهلة ..

جاءتهم من الضيعة المجاورة حيث يعيش القريب الوحيد للأسرة .. كان عماً مبهماً أو ابن عم لـ (سالى) يحمل اسم (تلبيرى فوستر) .. فى السبعين من عمره .. عزب .. اشتهر بجفاف الطبع والحدة ..

وقد حاول (سالى) أن يرسل له خطاباً مرة ، لكنه قرر ألا يكرر هذا الخطأ ثانية ..

فى هذه المرة كتب (تلبيرى) لـ (سالى) يقول له إنه سيموت قريباً ، ولسوف يترك له فى وصيته ثلاثين ألف دولار نقداً .. ليس لأنه يحبه ، ولكن لأن هذا المال سبب أكثر متاعبه ، وهو يريد أن يتأكد أن المال سيواصل مهمته الخبيثة ..

إن الإرث موجود فى الوصية وسيتم دفع المبلغ لكن بشرط : على (سالى) أن يثبت لمنفذى الوصية

أنه لم يعلن الخبر لأحد ، ولم يتساءل عن حالة المحتضر ومدى دنوه من الخلاص النهائى ، ولم يحضر الجنازة ..

فما إن شفيت (أليك) من الصدمة التى سببها لها الخطاب ، حتى أرسلت إلى الضيعة التى يعيش فيها (تلبيرى) ، واشتركت فى الجريدة المحلية ..

وقرر (سالى) وزوجته ألا يذكرا الأخبار العظيمة لأحد ، وإلا فإن أحداً ما سينقل هذه الأخبار إلى فراش المحتضر ، حيث يظهران فى صورة الجاحدين للجميل المتعجلين لموت الرجل ..

ولبقية اليوم ظل (سالى) يحدث أكبر فوضى فى متجره ، و (أليك) لم تستطع إبقاء ذهنها بعيداً عن الأمر ، وكانت تتناول أصيص زهور أو كتاباً أو عصا .. ثم سرعان ما تجد أنها نسيت ما كانت تنوى عمله بها .. كان كلا الزوجين يحلم ..

ثلاثون ألفاً من الدولارات !

طيلة اليوم ظلت موسيقا هذه العبارة تتردد فى ذهن الزوجين .. منذ زواجهما حتى اليوم كانت (أليك) مقتصدة تماماً ، وما كان (سالى) يعرف كيف ينفق مليماً على غير الضروريات ..

لكن ثلاثين ألفًا من الدولارات ! مبلغ ضخم .. مبلغ يصعب استيعابه ..

وظلت (أليك) طيلة اليوم تفكر فى كيفية استثمار المبلغ ، أما (سالى) فكان يفكر فى كيفية إنفاقه ..

وفى هذه الليلة لم يطالعا كتبهما الرومانسية ، ودخلت الطفلتان إلى الفراش مبكرًا لأن أبويهما كانا صامتين ممتلئين إلى حد غريب .. وحتى قبلات المساء لم تحدث تأثيرًا ، لأن الوالدين لم يشعرا بالقبلات على الإطلاق ، ومرت ساعة قبل أن يلاحظ أحدهما أن الطفلتين دخلتا الفراش ..

طيلة هذه الساعة كان قلمان مشغولين بالكتابة ، يدونان مئات الخطط والتصورات ..

كان (سالى) هو من حطم هذا الصمت ، حين قال فى ابتهاج .

ـ « آه ! سيكون هذا عظيمًا يا (أليك) .. من أول ألف سنحصل على عربة وحصان لرحلات الصيف ، وبطانية للشتاء .. »

أجابت (أليك) فى تصميم ورباطه جأش :



طيلة هذه الساعة كان قلمان مشغولين بالكتابة ، يدونان مئات الخطط والتصورات ..

ـ « ليس من رأس المال .. حتى لو كان المبلغ مليون دولار ! »

أصاب (سالى) الإحباط واختفى البريق من وجهه ، فقال :

ـ « لقد عملنا بجهد طيلة حياتنا ، ومن الواجب أن .. »

يبدو أن لهجته المتضرعة أثرت فيها ، لأنها قالت متلطفة :

ـ « لا يجب أن ننفق رأس المال يا عزيزى .. ليس هذا من الحكمة فى شىء .. يمكننا أن نعيش من عائد ادخاره .. »

ـ « حقًا أنت حكيمة .. سنعيش من الدخل .. »

ـ « ليس كله يا عزيزى .. يمكنك أن تنفق جزءًا من هذا الدخل .. أنت تفهم منطقى أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى .. بلى .. لكن معنى هذا أن ننتظر ستة أشهر حتى ننفق أول أرباح تأتينا .. »

ـ « بل ربما أكثر من ستة أشهر .. »

ـ « لماذا يا (أليك) ؟ إنهم يصرفون العائد كل ستة أشهر .. »

ـ « فى الاستثمار التقليدى نعم .. لكن ليس فى نوع الاستثمار الذى أفكر فيه من أجل عائد أكبر .. »

ـ « وما هو ؟ »

ـ « مناجم الفحم الجديدة .. سنضع الحدَّ الأدنى ونحصل على ثلاثة أنصبة لكل واحد .. وخلال عام تظفر العشرة آلاف بثلاثين ألفًا .. إننى أعرف كل التفاصيل .. إنها منشورة هنا فى جريدة (سنسيناتى) .. »

صاح :

ـ « عشرة آلاف تجلب ثلاثين ألفًا ! فلنضع كل شىء ونحصل على تسعين .. سأشترك الآن ! »

لكن (أليك) أوقفته ، وذكرته بأن المال ليس لديهما بعد .. قال لها :

ـ « إن الرجل على حافة المائة ، ولا بد أنه يموت الآن .. أو ربما انتهت آلامه فعلاً .. »

هزّت رأسها فى ضيق وقالت :

ـ « كيف تتكلم بهذه الطريقة يا (سالى) ؟ إنها مشينة .. »

- « ألا يمكنك أن تتركى شخصًا يتكلم ؟ »

- « ولماذا تتكلم بهذه الطريقة الشنيعة ؟ كيف تحب أن ترى الناس يتكلمون عنك هكذا ، بينما لم تبرد جثتك بعد .. »

- « لا أظن أنني أحبّ هذا .. لكن هذا سيحدث لو منحت الناس مالا لمجرد أن أؤذيهم به .. وعلى كل حال دعينا من (تلبيرى) هذا .. ما وجه اعتراضك على استثمار الثلاثين ألفا كلها فى الفحم ؟ »

- « كل البيض فى سلة واحدة .. هذا هو سبب اعتراضى .. »

- ليكن .. وماذا تنوين عمله بالعشرين ألفا الباقية ؟ »

- « لا داعى للعجلة .. سأبحث حولى جيدًا لأعرف ما أفعله بها .. »

- « إذن ما زال بوسعى أن آخذ ثلاثة آلاف من أرباح العشرة ؟ »

كانت راضية رائقة البال ، لهذا أجرت حسبة فى ذهنها ، شعرت بأنها تبذير سفيه ، لكنها سمحت له بألفى دولار على كل حال ..

قبلها فى حرارة نصف دستة من القبلات ، وجعلها هذا أقل حصافة ، لذا - قبل أن تدرك الأمر - منحته ألفى دولار آخرين ..

وجلس (سالى) فى حماس يدوّن الأشياء التى يود أن يشتريها فى البداية .. عربة .. حصان .. كلب .. قبعة .. أسنان جديدة ..

أما هى فواصلت حساباتها .. كان عليها أن تستثمر الثلاثين ألفًا التى هى أرباح الفحم عن عام واحد .. وبعد ما استثمرت المبلغ فى القمح والنفط صارت أرباحها ثمانين ألفًا صافية ..

- « رباه ! أليس هذا رائعًا ؟ لقد قابلنا الحظ أخيرًا بعد كل الكفاح الشاق .. »

وراضيًا اتجه إلى الفراش ، ولحقت به .. كانا محلقين حتى إنهما نسيا الشمعة مشتعلة فى الردهة ، وتذكرها (سالى) بعد ما نزع ثيابه ، لكنه رأى أن يتركاها تذوب كلية ، فهما قادران على هذا الإسراف ، لكن (أليك) أصرت على أن تطفئها ..

وكان هذا تصرفًا موفقًا ، لأنها إذ عادت من الردهة وجدت فكرة طيبة يمكنها أن تجعل الثلاثين ألفًا نصف مليون ..

* * *

الفصل الثالث

كانت الصحيفة التى اشتركت فيها (آليك) تُدعى (ساجامور الأسبوعية) ، وكان عليها أن تقطع خمسمائة ميل من قرية (تلبيرى) كى تصل إليهما يوم السبت ، لأنها تصدر يوم الخميس ..

لقد جاءهما خطاب (تلبيرى) يوم الجمعة متأخرًا بما لا يكفى أن تظهر وفاة الرجل فى هذه الطبعة ، لكن من الممكن أن تظهر فى الطبعة التالية ..

لهذا انتظر آل (فوستر) أسبوعًا طويلاً ثقيلاً ، وما كانا ليحتملان هذا الأسبوع لو لم يجد عقلاهما شيئًا يشردان فيه .. فكما رأينا كانت المرأة مشغولة بتكديس المال ، والرجل كان ينفقه ..

فى النهاية جاء السبت ، وجاءت صحيفة (ساجامور) . وكانت زوجة الخورى تعمل عندهما على سبيل الإحسان .. فلاحظت المرأة أن الزوجين

لايصغيان لحرف مما تقول ، لذا انصرفت شاعرة بحيرة ومهانة ..

على الفور مزق (سالى) المغلف ليخرج الصحيفة ، وجرت عينا الزوجين عبر سطور صفحة الوفيات .. يا لخيبة الأمل ! (تلبيرى) غير موجود ..

تماسكت (أليك) كالعادة ، وقالت بلهجة مليئة بالتقوى :

ـ « فلنحمد الله فى تواضع .. لقد نجا الرجل .. »

قال (سالى) :

ـ « سحقًا للرجل المخادع ! أتمنى لو .. »

ـ « (سالى) ! هذا مشين .. »

قال فى غضب :

ـ « لا أهتم .. أنت كذلك تشعرين بالشىء ذاته ، ولو لم تكونى طاهرة إلى هذا الحد المخجل لقلت ذات الكلام بأمانة .. »

فى كبرياء جريحة قالت :

ـ « لا أدرى ما الذى يجعل الأمور غير كريمة وغير عادلة كهذا .. لا يوجد شىء أكثر سموًا من الطهر الخالد .. »

أحس (سالى) بغصة حاول أن يخفيها ، كأنما بوسعه أن يخدع تلك المرأة الخبيرة التى يحاول خداعها :

ـ « لم أقصد شيئًا بهذا السوء يا (أليك) .. أعنى .. قلت .. كنت أتكلم عن الأسلوب التقليدى فى إظهار الإخلاص .. أنت تعرفين ما أعنيه .. إخلاص المتاجر الذى نخدع به الزبائن .. حسن .. هلمى .. أنا لا أجد الكلمات المناسبة ، لكنك تفهمين ، وتدركين أنه لا ضرر هنالك .. »

ـ « حسن .. لننه الموضوع .. »

جفف العرق عن جبينه ، واعتذر لها :

ـ « ليكن .. أنا ضعيف فى هذه اللعبة ، وليس لدى الصبر الكافى .. »

ثم هدأ بعد ما اعترف بهزيمته ، فسامحته (أليك) بعينيها ، وفيما بعد ناقش الزوجان لغز اختفاء نعى

(تلبيرى) من الجريدة .. وفى كل مرة كانا يصلان إلى نفس النقطة ، وفى النهاية توصلا إلى أن التفسير الوحيد لعدم وجود نعى لـ (تلبيرى) هو أن الرجل - حتمًا - مازال حيًا ..

كان هذا محزنًا .. وبالإضافة لهذا كان فيه شىء غير عادل .. لكنه حدث ولا بد من قبوله ..

وحاول (سالى) يائسًا أن يجعل زوجته تشاركه الحزن ، لكنه فشل لأنها احتفظت برأيها لنفسها .. لم تعتد أن تجازف أبدًا فى هذا العالم أو سواه .. يجب أن ينتظرا للأسبوع القادم ، لأن (تلبيرى) قد تكاسل عن أداء واجبه ..

وانهمكا فى العمل بإخلاص قدر الاستطاعة ..

لم يعلما أن (تلبيرى) قد كان عند كلمته حرفيًا .. لقد مات وفى الوقت المحدد .. مات منذ أربعة أيام واعتاد الأمر .. مات بدقة .. مات قبل إصدار جريدة (ساجامور) بوقت كاف ، لكن ما منعه من الظهور هو حادث .. حادث ما كان ليحدث فى جريدة كبرى لكنه يحدث كثيرًا فى قرية بائسة قبل (ساجامور) .

كان رئيس التحرير قد تلقى هدية من عصير الفراولة (الشليك) البارد من مؤسسة (هوستتر) التجارية ، من ثم تم إبعاد نعى (تلبيرى) كى يجد رئيس التحرير مكانًا ينشر فيه شكره العميق المحموم ..

وفى طريقه إلى لوح التجميع تبعثرت حروف نعى (تلبيرى) ، وبالتالى لن يجد طريقه إلى الطبعات التالية .. لقد ضاعت فرصته فى النشر للأبد ..

فليرقد (تلبيرى) فى قبره .. إن نعيه لن يرى النور حتى يوم الدين ..

* * *

الفصل الرابع

مضت خمسة أسابيع مرهقة ، وكانت جريدة (ساجامور) تصل كل سبت لكن لم تحو أية نسخة منها خبر وفاة (تلبيرى) ، وهنا انهارت أعصاب (سالى) وبامتعاض قال :

ـ « تبًا لأحشائه ! إنه خالد ! »

وبخته (أليك) بشدة ، وأضافت بوقار جليدى :

ـ كيف ستشعر لو أنك مت فجأة ، بعد ما تلفظ عبارة شنيعة كهذه ؟ »

بلا اهتمام أجاب :

ـ « سأشعر بأننى محظوظ لأننى لم أمت وهى محشورة فىّ حلقى ! »

قالها وفرّ مبتعدًا عن مرمى مدفعية زوجته ..

* * *

جاءت ستة أشهر وولّت ..

ومن حين لآخر كان (سالى) ينسى ، وتفلت منه تلميحة أو أخرى إلى أنه يريد أن يعرف ، لكن زوجته كانت تردعه بقسوة ..

قرر أن يخاطر بهجمة أمامية ؛ أن يتنكر ويذهب لـ (ساجامور) كى يتشمم الأخبار ، إلا أن (أليك) وضعت قدمها فى الأمر ، وقالت :

ـ « فيم تفكر ؟ إننى مشغولة بك طيلة الوقت كطفل لإبقائك بعيدًا عن النار .. »

ـ « ولماذا ؟ أستطيع أن أذهب ولا يكتشف أمرى أحد .. أنا متأكد .. »

ـ « (سالى فوستر) .. سيكون عليك أن تجرى بعض التحقيقات ، وتسأل .. سيكون هذا معلومًا لمنفذى الوصية على الفور .. »

لم يجد ما يقول فقالت :

ـ « الآن أبعد هذه الفكرة عن رأسك ولا تعبث بها ثانية .. إن (تلبيرى) قد أعد لك هذا الشرك .. ألا تفهم أن هذا شرك ؟

إنهم يراقبونك وينتظرون ، ولسوف تصيبهم خيبة الأمل ما دمت أنا من يتولى الأمر .. »

ثم أضافت :

ـ « لا تفقد صبرك .. إن أحوالنا المالية تزدهر فلا داعي للعجلة .. وأنا لم أرتكب أي خطأ .. إن المال يتكدس بالألوف ، وما من أسرة في المنطقة تملك هذا الثراء الفاحش .. احمد الله (تعالى) وكف عن القلق .. فما كان بوسعنا أن نحقق كل هذا دون عونه العظيم .. المشكلة معك هي أنك لا تستطيع أن تفتح فاك دون أن تجعل المرء يرتجف فرقًا .. إنك تجعلني في خوف مستمر عليك وعلينا جميعًا .. كنت فيما مضى لا أخاف الرعد .. أما الآن ..... »

وتحطم صوتها فراحت تبكي ، ولم تكمل عبارتها ..

مزق هذا المشهد (سالي) فأراحها بين ذراعيه ، وسألها العفو ، ووعدها بأن يكون أفضل ..

وكان جادًا في رغبته هذه ، لذا فكر في الأمر طويلاً .. من السهل أن تعد بالاستقامة لكن من الصعب أن تفعلها .. يجب أن يقوم بشيء أكيد ..

وبمبلغ باهظ من المال الذي كان يدخره شلنًا مع شلن وجد حلاً ذكيًا :

وضع على سقف البيت قضيبًا واقيًا من الصواعق !

* * *

ما أسهل اكتساب العادات ! وما أسرع ما نكتسبها ! العادات البسيطة والعادات التي تغيرنا بعمق .. لو صحونا بالصدفة ليلتين متتاليتين في الثالثة صباحًا ، فعلينا أن نقلق .. لأن تكرار هذا مرة ثالثة سيجعله عادة ..

لكننا جميعًا نعرف هذه الحقائق .. عادة بناء القلاع .. عادة أحلام اليقظة .. لكم تصير ممتعة ، ولكم نعربد في متعها ونضع فيها أرواحنا ، ونسلم أنفسنا لخيالاتها الملحة القاهرة ، وسرعان ما تختلط حياة الأحلام بالحياة الواقعية حتى لا نعرف أين نحن بالضبط ..

لقد اشتركت (أليك) في جريدة مالية مختصة بالأسهم تصدر من (شيكاغو) بها مؤشرات (وول ستريت) ، وراحت تدرس هذه الأمور كما كانت تدرس الإنجيل أيام الأحد ..

ونمت موهبتها التنبؤية بصورة لا تصدق ، وازدادت خبرتها بالأسواق . وكان (سالى) فخوراً بجرأتها فى المضاربة وحذرها المتحفظ فى إجراء الصفقات الخيالية ، فلم تفقد صوابها قط ..

ومرت أشهر صنعت فيها (أليك) ثروة خيالية بسرعة لم تتخيلها قط ..

فى البداية استثمرا عشرة آلاف وهمية ، فعادت لهما بعد عام وعلى ظهرها ثلاثمائة ألف تخيلية .. وفقد آل (فوستر) القدرة على الكلام من الحبور ..

هنا قررت (أليك) بكثير من الذعر أن تستثمر العشرين ألفاً الباقية من الوصية ، وراحت طيلة الوقت تخشى أن يحدث انهيار فى السوق ، وأخيراً أرسلت برقية تخيلية لسمسار البورصة التخيلى تأمره فيها بأن يبيع الأسهم .. وتم البيع فى نفس اليوم ..

وبدأ قلب (أليك) يزداد جرأة ..

ولو نظرنا من خلال عينى هذين الحالمين ، لرأينا أن كوخهما الخشبى يختفى ويحل مكانه منزل قرميدى ذو طابقين له سور حديدى ، وثريا عملاقة تتدلى من

سقف البهو ، وسجادة المنزل تتحول إلى بساط بلجيكى فاخر ، والتحف المهيبة فى كل مكان ..

ومن هذا الوقت كان قلق (أليك) يتزايد بسبب فواتير الغاز ، فيجيبها (سالى) فى استهتار :

ـ « وماذا هناك ؟ يمكننا تحمل هذا الإسراف .. »

وقرر الزوجان أن يقيما حفلاً بمناسبة ثرائهما ، لكن كيف يمكن شرح الأمر للفتاتين والجيران ؟ لا يمكن أن يعلنا للناس أنهما ثريان ..

بم يحتفلان إذن وليست هناك أعياد ميلاد خلال ثلاثة أشهر ؟

فى النهاية وجد (سالى) فكرة عبقرية .. سيحتفلان باكتشاف أمريكا !

إنها فكرة عظيمة ..

وقالت (أليك) فى إعجاب إنها ما كانت لتجد فكرة كهذه ، لكن (سالى) ـ برغم ما بدا على ملامحه من سرور ـ قال إن الأمر ليس بهذه الأهمية ، وأى شخص آخر كان سيفكر فى الشىء ذاته .. هذه المرأة العزيزة ..

إنها تراه موهوبًا ، وحتى لو كان حبها له هو ما جعلها تبالغ قليلاً ؛ فهذه جريمة بسيطة يمكن غفرانها من أجل صاحبتها ..

* * *

الفصل الخامس

كان الأصدقاء جميعًا موجودين فى الاحتفال .. الكبير والصغير .. فبين الصغار كانت (فلوسى) و (جريسى بينت) وأخوهما (أدلبير) .. وكان حرفيًا شابًا .. و (هوزانا ديكنز) الذى كان يدربه ..

ولعدة أشهر كان (أدلبير) و (هوزانا) يهتمان بابنتى (فوستر) ، وقد لاحظ الأبوان فى رضا هذا الاهتمام ..

لكنهما الآن شعرا بأن ثراءهما قد وضع حاجزًا اجتماعيًا بين ابنتيهما والحرفيين الشابين .. إن بوسع الفتاتين الآن النظر لأعلى .. بل يجب عليهما هذا .. يجب أن تتزوجا من طبقة المحامين أو التجار أو أعلى ..

لم يظهر الزوجان على السطح إلا الكبرياء والتهذيب الراقى اللذين فازا بإعجاب ودهشة الحاضرين ، لكن أحدًا لم يفهم سرّ هذا اللغز ، وقد علق ثلاثة أشخاص على الأمر دون أن يدركوا كم هم موفقون :

ـ « يبدو كأن آل (فوستر) قد فازوا بأبعدية ..

كانت (أليك) عملية جداً ، ولا تتصرف كأى أم أخرى فيما يتعلق بزواج ابنتيها .. فلم تحاول أن تبعدهما عن الحرفيين لكنها قررت أن تترك الطبيعة تختار ..

فى البداية فكرت فى (برانديش) المحامى الشاب ، و (فلتون) طبيب الأسنان الصاعد .. يجب أن يدعوهما (سالى) للعشاء لكن ليس الآن .. لا خطر من الإبطاء فى أمر مهم كهذا ..

واتضح أن هذه هى الحكمة بعينها ، لأن (أليك) أحرزت ضربة قوية فى سوق الأسهم ، جعلتها تحرز أربعمائة ألف دولار مرة واحدة ..

وفى هذه الليلة سمحت (أليك) بتقديم (الشمبانيا) على مادة العشاء ، وشعرت بخجل لهذا لأنها تربت على الفضيلة ، وكانت قداستها صلبة كحديد الغلايات .. لكن الثراء قد بدأ يفسدهما تدريجيًا .. لقد برهنا على حقيقة تمت البرهنة عليها مرارًا من قبل ، وهى أن المبادئ درع واق من التفاهات والرذائل .. لكن الفقر يهزم ستة دروع من هذه ..

الآن ناقشا موضوع الزواج ثانية ، فلم يذكرا اسم طبيب الأسنان والمحامى .. لقد صارا خارج السباق ..

تحدثا عن ابن تاجر الخنازير ، وابن مدير مصرف القرية ، وفى النهاية قررا أن ينتظرا ويتصرفا فى حكمة ..

قامت (أليك) بمضاربة قوية .. وظلت أيامًا فى شك لأن الفشل هنا يعنى الخراب ولا شىء سواه ، ثم جاءت النتيجة فأغشى عليها من الفرحة .. وحين أفاقت قالت بصوت متهدج :

ـ « لقد انتهت المعاناة يا (سالى) .. نحن نملك مليونًا الآن ! »

بكى (سالى) فرحًا ، وقال :

ـ « آه يا (أليك) يا حبيبة قلبى ! لن نحتاج إلى التقتير ثانية .. »

وهكذا طار ابن تاجر الخنازير ، وابن مدير المصرف ، وبدأ الزوجان يفكران فى ابن الحاكم وابن عضو مجلس الشيوخ بالقرية ..

* * *

الفصل السادس

من المرهق أن نتابع بالتفصيل وثبات آل (فوستر) فى الثراء التخيلى من وقتها .. كانت وثبات مذهلة .. وثبات مبهرة .. وثبات تسبب دوارًا ، وراحت الملايين تتكدس فوق الملايين حتى وصلت إلى قبة السماء ، وما زال التيار يتدفق ..

خمس ملايين .. عشرة .. ثلاثون .. هل هناك نهاية ؟

مرّ عامان فى حلم رائع ، ولم يلحظ آل (فوستر) مرور الوقت .. إن معهما الآن ثلاثمائة مليون دولار .

وبمرور الزمن صار لديهما ٢٤٠٠٠٠٠٠٠٠ر دولار .. وبدأ العمل يرتبك وصار من الضرورى أن يقوما بجرد ما لديهما من ثروة .. شعرا بهذا .. لكنهما أدركا أن المهمة يجب أن تتم حتى نهايتها بلا توقف متى بدأت .. مهمة تقتضى عشر ساعات ، وأين يمكن أن يجدا عشر ساعات كاملة مرة واحدة ؟



مرّ عامان فى حلم رائع ، ولم يلحظ آل (فوستر) مرور الوقت .. إن معهما الآن ثلاثمائة مليون دولار ..

كان (سالى) مشغولاً فى المتجر و (أليك) كانت مشغولة بالطهى وغسيل الصحون والتنظيف ، ولم تكن إحدى الفتاتين تساعدها لأنها ادخرتهما لمجتمع الصفوة .

كانت هناك طريقة واحدة للظفر بعشر ساعات ، وقد خجل كلاهما من تسميتها ، وانتظر كلٌ حتى يقول الآخر ذلك .. فى النهاية قالت :

ـ « يجب أن يستسلم أحد .. فلنفترض أننى سميتها ولا تتضايق من هذا .. »

واحمرّ وجهها ، ودون تعليق آخر قاما بهدم قاعدة عدم العمل يوم السبت(*) فقد كان هذا هو اليوم الوحيد الذى يمكن أن يجدا فيه عشر ساعات كاملة .. ومن هنا بدأ انحدارهما لأسفل ..

إن للثروة الواسعة إغراءات ، تهدم بسهولة التركيب النفسى لأولئك الذين لم يعتادوا امتلاكها .. لقد حطما قاعدة السبت ، وبعد جهد جهيد استطاعا جرد ثروتهما ..

(*) الزوجان مسيحيان لكنهما يتبعان قاعدة عدم العمل يوم السبت (Sabbath) التى يتمسك بها اليهود ، والمقصود هنا أن الثراء جعلهما يتنازلان دينيًا ..

قائمة طويلة هى تبدأ بالسكك الحديدية وكابلات المحيط والسفن البخارية وسلوك البرق ، وانتهاء بمقاطعة (كلوندايت) و (دى بير) ..

ودخل كل هذه الأملاك مائة وعشرون مليوناً سنوياً ..

قالت (أليك) فى رضا :

ـ « لقد انتهى العمل ، وحان الوقت كى ننعم بكل هذا المال .. »

شعر (سالى) بأن طنًا من الأصفاد الحديدية سقطت من على كاهله ..

ومن يومها اعتاد الزوجان أن يخرقا قاعدة السبت ، واعتادا أن يسهرا إلى ما بعد منتصف الليل ينفقان ثروتهما ، وسبب هذا لهما مشكلة فى ثمن الشمع الذى يبددانه ، حتى شعرت (أليك) بالقلق ..

وسرعان ما أدركت أن زوجها يسرق الشمع من المتجر دون أن يخبرها حتى يستطيعا السهر أكثر ..

هذه هى المشكلة .. إن الثروة العريضة لرجل لم يعتدها هى السمّ بعينه .. إنها تلتهم أخلاقه لحماً وعظماً ..

حين كان (سالى) فقيراً كنت تستطيع أن تثق به فيما يتعلق بالشمع ، أما الآن .. لكن دعنا لا نتجادل كثيراً .. إن الانتقال من سرقة الشمع إلى التفاح ليس سوى خطوة ..

واعتاد (سالى) أن يسرق التفاح من متجره ، ثم الصابون ، ثم سكر الشعير ، ثم البضائع المعلبة .. إن هذا سهل ما دام اتخذ الخطوة الأولى لأسفل ..

فى الوقت ذاته تحول البيت القرميدى إلى بيت من جرانيت ، ثم تحول هذا إلى بيت أعرض وأكبر وأجمل ، حتى جاء اليوم الذى يعيشان فيه فى قصر يطل على الوديان والأنهار .. ملكهما تماماً .. يملؤه الخدم والضيوف المشهورون ذوو النفوذ من كل العالم ..

وصار هذا القصر قطعة لا توصف من الأرستقراطية الأمريكية .. نحو الشرق .. فى جزيرة (رودس) ..

كانا يمضيان السبت من كل أسبوع فى هذا القصر ، وباقى الأسبوع فى أوربا ..

وقد ظلا مخلصين لكنيستهما الإكليركية الصغيرة .. وإن كانت خيالات (أليك) أقل جموحاً من خيالات (سالى) ..

فى البداية زارت (أليك) مجمع الأساقفة ثم زارت (روما) ، حيث استقبلها الكرادلة بالشموع ..

أما (سالى) فكانت أحلامه أكثر إثارة .. نضرة الشمع .. وازداد تبذيراً لدرجة لا تصدق ..

بنت (أليك) جامعة أو اثنتين ، ومستشفى ، وكاتدرائية .. أما هو فبنى عدة فنادق ..

وبدأ الرجل يلوم نفسه على ما كان منه فى أعوام الثراء هذه ، وقارن بين نفسه وزوجته .. وراح خداه يحمران ، وروحه تغرق خزياً ..

انظر لها .. إنها ترتفع وتعلو .. بينما هو يهوى فى التفاهات .. لكم هو خاوٍ ! ماذا يقول لنفسه ؟ ماذا كان يفعل حين بنت أول كنيسة لنفسها ؟ كان هو يصحب المليونيرات إلى أندية البوكر ويخسر فى كل جلسة مئات الألوف .. وحين بنت أول جامعة لها ماذا كان يفعل ؟ كان مع أصدقاء السوء .. وحين أنشأت أول مصحة عقلية ماذا كان يفعل ؟ يا للحسرة ! وحين استقبلت فى (روما) وقابلها البابا وخلع عليها وسام الزهرة الذهبية ، ماذا كان يفعل ؟ لن يستطيع التمادى .. لن يتحمل أكثر ..

يجب أن يعرف الناس حياته السرية .. لن يعيشها فى الخفاء .. لسوف يخبرها بكل شىء ..

وأخبرها وبكى وتوسل إليها كى تسامحه ..

كانت صدمة هائلة لها ، وتراجعت .. لكنه كان ملكًا لقلبها ونعمة عينها وكل شىء فيها ، لذا لم تستطع إلا أن تسامحه ، وإن أدركت أنه لن يعود كما كان .. سيندم فقط لكنه لن يستقيم ثانية ..

لكنها برغم كل شىء فتحت له قلبها المفعم بالحنين ..

* * *

الفصل السابع

فى عصر أحد أيام الأحد كانا يركبان يختهما فى بحور الصيف ، يسترخيان تحت مظلة على السطح .. لقد زادت فترات صمتهما فى الآونة الأخيرة ، وقد بهتت الرابطة القوية بينهما ..

لقد حاولت (أليك) مرارًا أن تنسى اعتراف (سالى) المخيف لها لكنها لم تستطع .. الآن تستطيع أن ترى أن زوجها صار شيئًا منتفخًا مقززًا .. لكنها بدورها كانت تخفى عنه سرًا مخيفًا ، وفى هذا لم تعامله بشرف ..

لقد قامرت بكل ثروتهما فى شراء كل السكك الحديدية وكل مناجم الفحم فى البلاد ، وكانت ترتجف كل سبت خشية أن يكتشف ذلك من كلمة عارضة تتفوه بها ، وكانت خجلى من خيانتها هذه ، فلم تستطع أن تمنع نفسها من الإشفاق عليه ..

لكم يملؤها تأنيب الضمير وهى تراه يرقد هناك سعيدًا ، واثقًا بها تمامًا ، وهى تدارى عنه كارثة رهيبة محتملة..

قال لها :

ـ « هل تعلمين يا (أليك) ؟ »

أجابت بكل رقة مصطنعة :

ـ « نعم يا عزيزى ؟ »

ـ « أعتقد أننا نرتكب خطأ .. أعنى بصدد موضوع الزواج .. »

وجلس ـ رخواً بديناً ـ وتكلم بجدية :

ـ « لقد مرت خمسة أعوام ، وقد واصلت سياستك من البداية ، وكلما اعتقدت أننا سنرى زفاف البنتين وجدت أنت شيئاً جديداً فى الأفق .. أعتقد أنك صعبة الإرضاء .. فى البداية تخلينا عن طبيب الأسنان والمحامى .. قد أوافقك فى هذا .. ثم تخلينا عن ابن الحاكم وابن عضو مجلس الشيوخ .. قد أقبل هذا .. بعد هذا جاء ابن رئيس الولايات المتحدة .. ربما كان هذا صائباً .. ثم قررت أن تفتشى عن الأرستقراطية ، وحسبت أننا نجحنا أخيراً .. جاءنا اثنان من الأرستقراطيين الحقيقيين من أوربا ، فإذا بك ترفضينهما ببساطة .. لقد تخلصت من

(البارونيت) من أجل (البارون) .. وتخلصت من (البارون) من أجل (الفيسكونت) .. وتخلصت من (الفيسكونت) كى تظفرى بـ (إيرل) ، وتخلصت من (الإيرل) من أجل (ماركيز) .. وتخلصت من (الماركيز) من أجل (دوق) .. يجب أن تهدئى يا (أليك) .. لقد وصلت إلى الذروة .. لقد جاءك أربعة دوقات من أربع جنسيات لا غبار عليهم فى النسب .. لا تتأخرى أكثر من ذلك .. »

وكان يبتسم فى صفاء ورضا ، وهو يقول ما قال ..

كانت عيناها تشعان بدهشة لطيفة وهى تصغى ، ثم مالت عليه هامسة :

ـ « (سالى) .. ماذا تقول عن الأسر المالكة ؟! »

ـ « مذهل ! »

إن الرجل المسكين فقد توازنه للحظة ، ثم جلس أمام زوجته ، وغمرها بانبهاره واحترامه ، وقال :

ـ « (أليك) .. أنت أعظم امرأة على وجه الأرض .. لن أخبر أبداً حجمك الحقيقى ولا أعماقك .. حسبت نفسى مؤهلاً لانتقاد لعبتك ، ولم أدر أنك تخفين شيئاً فى كمك .. »

قربت المرأة شفتيها من أذنه وهمست باسم ، فصاح :

ـ « إنها ضربة موفقة بحق .. وهو يملك مقبرة كاملة فى أجمل بقعة بأوربا .. وهى مقبرة من أرقى مقابر العالم ، ولا يدفنون فيها إلا حالات الانتحار .. إن لديه ثمانمائة فدان .. لكنها السيادة وهى أهم شىء .. إنها أهم من الأرض .. إن الأرض لا تساوى شيئاً ، والصحراء مليئة بها على كل حال .. »

قالت (أليك) فى رضا :

ـ « فكر فى هذا يا (سالى) .. إنها أسرة لم تناسب قط أى بيت غير ملكى فى أوربا .. سيجلس أحفادنا على عروش ! »

ـ « فى حياتك يا (أليك) ! ويحملون الصولجانات أيضاً ، بطريقة طبيعية كما أحمل أنا عصا الحديقة .. ومن الآخر ؟ »

ـ « سموه (سيكزموند سيجفريد لانفيليد شفارتزنبرج بلوتفورست) دوق (كاتزنيامر) .. »

ـ « لا ! أنت لا تعنين هذا .. »

ـ « بل هو حقيقى كما أجلس هنا أمامك .. »

فاض به ، فصاح فى طرب :

ـ « إن هذا لا يصدق ! إنه أكثر البيوت عراقة بين الـ ٣٦٤ إمارة ألمانية قديمة ، ومن الإمارات القليلة التى ظلت بعد ما قام (بسمارك) بتوحيد ألمانيا .. لقد انتظرنا طويلاً يا (أليك) وتحطمت قلوبنا ، لكن يعلم الله كم أنا سعيد الآن .. سعيد لك أنت التى قمت بكل هذا .. ومتى يتم هذا ؟ »

ـ « الأحد القادم .. »

ـ « حسن .. يجب أن يتمّ بأبهى صورة .. أعرف أن الملوك يفضلون الزواج الـ Morgantic .. »(*)

ـ « ولماذا يسمونه هكذا ؟ »

ـ « لا أعرف .. لكنهم يصرّون عليه .. »

(*) Morgantic هو الزواج الذى يتم بين فرد من الأسرة المالكة وفرد من عامة الشعب ، وبالتالى لا تترتب للطرف الثانى أية حقوق ملكية يطالب بها ..

- « إذن سنصرّ عليه .. سيكون الزواج Morgantic وإلا فلا .... »

- « هذا يسوى الأمور .. سيكون أول زواج من نوعه فى أمريكا .. »

وغرق الزوجان فى الأحلام ، وترتيب هذا الزواج .

* * *

الفصل الثامن ..

لمدة ثلاثة أيام مشى الزوجان فى الهواء ، ورأساهما فوق السحب .. وراح (سالى) يبيع العسل بالوزن ويبيع السكر بالياردة ، ويبيع الصابون حين يشترى أحدهم منه شمعًا .. أما (أليك) فوضعت القطة فى سلة الغسيل ، وسقت الغيارات المتسخة باللبن ..

كان الجميع يتساءل : ماذا حدث لـ (فوستر) ؟

ثم جاءت الأحداث ..

كانت أسهم (أليك) ترتفع باستمرار لمدة يومين ، وراح السماسرة الوهميون يصرخون فيها :

- « بيعى ! بيعى ! بحق السماء بيعى ! »

وقال لها (سالى) :

- « بيعى ! لا ترتكبى خطأ الآن ، فأنت تملكين الأرض وما عليها .. »

لكنها ثبتت إرادتها الحديدية ، وفى اليوم التالى

جاء الانهيار الهائل فى البورصة ، حين تداعى (وول ستريت) ، وشوهد المليونيرات يستجدون خبزهم فى الطرقات ..

ثم جاءت مكالمة لها تخبرها .. لقد باع السمامرة أسهمهم .. وخسر كل سهم خمساً وتسعين نقطة ..

هنا فقط تراجع الرجل فيها ، واستردت المرأة السيطرة .. أحاطت عنق زوجها وبكت :

ـ « لا تسامحنى .. أنا استحق كل لوم .. أنا السبب .. نحن الآن معدمون .. لن يتم الزواج وانتهى كل شىء .. لن تزوج الفتاتين حتى لطبيب الأسنان والمحامى .. »

جرى اللوم على لسان (سالى) ، وقال :

ـ « لقد توسلت إليك أن تبيعى .. لكنك .... »

ولم يجد الشجاعة كى يزيد تعاستها .. ثم أضاف فى تعقل :

ـ « نحن لم ننفق مليماً من إرث عمى .. ما فقدناه هو الحصاد التخيلى لهذا المستقبل بوساطة حصافتك المالية التى لا تضاهى .. لدينا ثلاثون ألفاً لم يمسها

أحد ، وبالخبرة التى اكتسبتها ، فكرى فيما ستفعلين خلال عامين .. إن الزيجتين لم تلغيا بل تأجلتا .. »

كانت هذه كلمات مباركة ، وكان تأثيرها كهربياً ..

لمعت عينا (أليك) ودمعتا ، وقالت بقلب ممتن :

ـ « الآن وهنا أصرح بأن ..... »

هنا قاطع عبارتها قدوم ضيف ..

كان هذا هو مالك ورئيس تحرير جريدة (ساجامور) ، وكان قد جاء إلى القرية لزيارة جدّ له أوشك على الرحيل من عالمنا ، وكان راغباً فى الجمع بين العمل والحزن ، لذا قرر أن يزور آل (فوستر) الذين لم يدفعوا ستة دولارات مطلوبة لتجديد الاشتراك فى جريدته ..

رحبا بالضيف بحرارة ، فهو يعرف كل شىء عن العم (تلبيرى) ، والفرص المتاحة له كى يذهب إلى المقبرة ..

بالطبع لن يسألا أية أسئلة لأن هذا سيدمر الوصية ، لكنهما قررا أن يحوما حول الموضوع ، لكن رئيس التحرير الأحمق لم يفهم ما يريدان ، وفى النهاية استطاع الحظ أن يقدم لهما ما عجز الفن عن تقديمه ..

قال رئيس التحرير وقد احتاج لاستعمال المجاز فى نقطة من حديثه :

ـ « إنه صلب مثل (تلبيرى فوستر) .. »

فلما رأى ذهول الزوجين ، قال فى حرج :

ـ « لم أقصد ضررًا .. إنها مجرد استعارة .. هل هو قريب لكما ؟ »

أجاب (سالى) بكل ما استطاع استحضاره من لامبالاة :

ـ « لا أعرفه .. لكنى سمعت عنه .. »

استعاد رئيس التحرير رباطة جأشه ، فسأله (سالى) :

ـ « هل هو على ما يرام ؟ »

ـ « لماذا ؟ إنه فى القبر منذ خمسة أعوام .. »

ارتجف آل (فوستر) حزنًا ، برغم أن تعبيرهما بدا كالسرور ، وقال (سالى) :

ـ « آه .. هذه هى الحياة .. حتى الأثرياء لا يفرون .. لا أحد يهرب .. »

ضحك المحرر وقال :

ـ « لو كنت تضم (تلبيرى) إلى الأثرياء فأنا لا أوافق .. فليس لديه مليم ، وقد احتاجت المدينة إلى دفنه على حسابها .. »

تصلب آل (فوستر) لمدة دقيقتين ، وشعرا بالبرد ..

ـ « هل هذا حقيقى ؟ »

ـ « نعم .. لقد كنت واحدًا من منفذى الوصية ، ولم يكن عنده سوى دراجة يدوية ، وقد تركها لى .. لم يكن بها عجلة سليمة ولم يكن لها نفع .. لكنها شىء على كل حال ، وقد كتبت له نعيًا لهذا السبب لكن حروفه تبعثرت فى المطبعة .. »

لم يكن آل (فوستر) يصغيان .. كانا جالسين بلا حراك برأسين مطرقين ، وبعد ساعة كان رئيس التحرير قد رحل دون أن يشعرا ..

تبادلا النظرات مرهقين ، ثم بدأ يتكلمان بطريقة حائرة كالأطفال ، كانا يبدأن جملة ثم لا ينهيانها ،

ويسود الصمت ولا يلاحظان أن الجملة لم تتم .. ومن حين لآخر كانا يشعران بأن شيئا ما حدث لعقليهما .. ثم يلمس كل منهما يد الآخر فى حنين مشترك ، كأن كلاً منهما يقول لصاحبه : أنا معك .. لن أتخلى عنك .. سنتحمل الأمر معًا ، وفى مكان ما يوجد الخلاص والنسيان .. فى مكان ما يوجد قبر وسلام ، ولن يطول هذا ..

ولمدة عامين عاشا فى ظلام عقلى تام واكتئاب دائم ، وندم غامض ..

ثم جاء الخلاص يومًا ، وقرب النهاية ارتفع الظلام عن عقل (سالى) فقال :

ـ « ثروة عظيمة تمَ اكتسابها فى ظروف فاسدة .. ومفاجأة هى فخ .. لم تجدنا نفعًا ، وكانت متعها محمومة قصيرة ، لكننا من أجلها لفظنا حياتنا البسيطة السعيدة .. فليتعظ منا الآخرون .. »

ورقد صامتًا لحظة بعينين مغمضتين ، ثم جاءت سكرة الموت تعصر فؤاده ، وغاب عنه الوعى ؛ فقال مغمغمًا :

ـ « لقد جلب له المال المتاعب فقرر أن ينتقم منا .. نحن اللذين لم نؤذه قط .. ترك لنا ثلاثين ألفًا عالمًا ـ بمكر ـ أننا سنحاول زيادتها ، فنحطم حياتنا وقلبينا .. وما كان ليتكلف شيئًا لو ترك لنا مبلغًا أكبر يقضى على رغبتنا فى الزيادة .. مبلغًا أكبر من الإغراء .. كانت روح أطيب ستفعل هذا ، لكن فى هذا الرجل لم تكن روح كريمة .. لاشفقة .. لا .. »

* * *

أجَنّة أم نار؟

الفصل الأول

ـ « أنت تفوهت بكذبة »

ـ « أنت تعترفين .. بالحق تعترفين .. أنت قلت كذبة .. »

★ ★ ★



الفصل الثانى

كانت الأسرة تتكون من أربعة أشخاص : (مارجريت) وهى أرملة عمرها ستة وثلاثون عامًا ، و (هيلين) ابنتها وهى فى السادسة عشرة ، والعمتين (هانا) و (هستر) وهما عانسان فى السابعة والستين توءمان ..

وكانت النسوة يعشقن الفتاة الصغيرة ، ويرقبن روحها الحلوة فى مرآة وجهها ، وتنتعش أرواحهن فى الإصغاء لها ، ويشعرن كم أن العالم عذب ثرى عادل فى وجودها ..

فى داخلهما كانت العمتان عزيزتين لطيفتين ، لكن بالنسبة للسلوك كانت تربيتهما الصارمة قد جعلتهما شديدتى الحزم ولا أقول قاسيتين ..

كان تأثيرهما على البيت قويًا جدًا ، حتى إن الأم وابنتها قبلتا سلطتهما فى رضا وبلا تساؤل ..

لم تكن هناك صدامات ، ولا أخطاء ، ولا قلوب تحترق فى هذا البيت ، ولم يكن فى البيت هكذا مكان للكذب .. لم يكن فى بيت كهذا شىء سوى الحقيقة الصلبة كالمعادن .. الحقيقة التى لا تلين ولا تتهاود ، وليكن ما يكون ..

وفى يوم - تحت ضغط الظروف - لطخت حسناء البيت الصغيرة شفتيها بالكذب ، واعترفت بذلك بالدموع ولوم النفس ..

لا توجد كلمات يمكن أن تصور ذعر العمتين .. كان السماء فوقهما قد تجعدت ، وانهارت ، والأرض صارت خرابًا ..

جلستا جنبًا إلى جنب شاحبتى الوجه تتبادلان النظرات ، وترمقان المتهمة التى ركعت على ركبتيها أمامهما ، تدفن وجهها فى حجر كل منهما وهى تئن وتبكى وتطلب الرحمة ..

لثمت يد واحدة منهما فى تواضع ، فقط لتنسحب اليد كأنما تشعر باشمئزاز من هاتين الشفتين الملطختين ، ومن حين لآخر تقول إحداهما :

- « أنت قلت كذبة .. »

وتقول الأخرى :

- « أنت تعترفين .. بالحق تعترفين .. لقد قلت كذبة .. »

كان الموقف فريدًا لم تمرا به من قبل ، ولايصدق .. ولم تفهماه ولم تعرفا كيف تتعاملان معه ..

وقررت المرأتان أن الطفلة خاطئة يجب أن تؤخذ إلى أمها التى كانت مريضة لا تدرى بما يحدث ، وتوسلت لهما (هيلين) أن ترحماها وتسترا عارها لأن أمها لن تتحمل ..

لكن الواجب يسبق كل تضحية ، ومع الواجب يهون كل شىء .. إن الواجب يسبق كل شىء ولا تهاون فيه ..

كانت العمتان عنيدتين فى الحق ، وقالتا إن القانون يجعل الابن يدفع ديون أبيه ، ويمكن أن نعكس هذه القاعدة .. لهذا من العدل أن تعانى الأم الطيبة لطفلة آثمة آلام الحزن والعار ، التى هى ثمن كل خطيئة ..

وتحرك الثلاث إلى غرفة المريضة ..

فى هذا الوقت كان الطبيب يدنو من البيت .. كان طبيبًا بارعًا ورجلاً طيبًا سليم الطوية ، لكن يجب أن تعرفه لمدة عام كى لا تمقته ، ولعامين كى تتعلم كيف تتحمله ، ولثلاثة أعوام كى تعجب به ، ولأربعة أعوام كى تعرف كيف تعيش معه .

إنها عملية تعلم مرهقة بطيئة ، لكن لها نفعها ..

كان ضخم الجثة خشن الصوت له وجه أسد ، وعينان أحيانًا ما تكونان عينى قرصان وأحيانًا عينى امرأة حسب مزاجه ..

لم يكن يبالى بقواعد اللياقة ، وكان صريحًا إلى درجة أن له رأيًا فى كل شىء ، وآراؤه جاهزة بمجرد فتح الصنبور .. ولم يكن يبالى ما إذا كانت هذه الآراء تروق للمستمع أم لا ..

كان فى شبابه بحارًا ، لذا كان هواء البحر المالح يفوح منه ، وكان يؤمن أنه أحسن واحد فى المنطقة .. وكان يكافح جهده من أجل ما يعتقده ..

وقد استعمل الكثير من الشتائم فى البحر فى شبابه ، فلما استقام التزم بقاعدة هى ألا يستعملها إلا فيما ندر ، وحين يتطلب الأمر هذا ..

وكان يحمل روحه على وجهه ، ولديه اهتمام شديد بآل (لستر) وكانوا يعرفون هذا ..

الآن هو ذا يدنو من البيت على مسافة ..

وكانت العمتان والفتاة المتهمة على باب غرفة المريضة ..

* * *

الفصل الثالث

وقف الثلاثة أمام الفراش ، وأدارت الأم وجهها لترمق طفلتها بعينين مغرورقتين بالحنان والحب الأمومى ، وفتحت ملجأ ذراعيها لها ، لكن العمة (هانا) أبقت الفتاة بعيدًا عن حضن أمها وقالت :

ـ « انتظرى ! »

وقالت العمة الأخرى بلهجة مؤثرة :

ـ (هيلين) .. قولى لأمك كل شىء .. اغسلى روحك .. »

وقفت الفتاة مهزومة بائسة ، وناحت بقصتها حتى النهاية ، ثم صاحت :

ـ « آه يا أماه ! ألن تغفرى لى ؟ أنا حزينة جدًا .. »

قالت الأم :

ـ « أغفر لك يا بنيتى .. هلمى إلى ذراعى وضعى رأسك على صدرى ، فلو كنت قلت ألف كذبة ..... »

هنا نظف أحدهم حلقه على سبيل التنبيه ، ونظرت العمتان إلى أعلى وانكمشتا فى ثوبيهما .. هناك وقف الطبيب ووجهه سحابة رعدية ، ولم تكن الأم وابنتها تعرفان شيئًا عن قدومه ، فظلتا ملتصقتين قلبًا بقلب ..

وضع الطبيب رأسه على كتفيه ، وأومأ للعمتين فهرعتا نحوه ترتجفان ، فهمس لهما :

ـ « ألم أقل لكما إن هذه المريضة يجب أن تبعد عن الانفعالات ، فماذا تفعلان هنا ؟ نظفا هذا المكان .. »

وبعد نصف ساعة ظهر فى البهو ، ويده حول خصر (هيلين) يداعبها ويقول لها أشياء مضحكة لطيفة ، وكانت قد استعادت تألقها ، فقال لها :

ـ « الآن يا عزيزتى اذهبى لغرفتك ، وابتعدى عن أمك .. لكن لحظة .. أخرجى لسانك ! هكذا ! أنت سليمة كالبندقة .. »

وسمح لها بالانصراف .. ثم اكفهر وجهه ثانية ، وجلس يقول :

ـ « لقد أحدثتما الكثير من الضرر ، وربما بعض الخير .. نعم .. إن مرض السيدة هو التيفود .. لقد

جعلتماه يعلن عن نفسه بحماقتكما ، وهذه خدمة لى .. لم أكن قبل الآن أعرف ما هو .. »

بانفعال هبت المرأتان مذعورتين ، فقال :

ـ « اجلسا .. ماذا تحاولان عمله ؟ »

ـ « يجب أن نطير ! »

ـ « لن تفعلا شيئاً .. لقد قارفتما كثيراً من الأذى حتى الآن .. فهل تريدان تبديد كل ما لديكما من الحماقات والجرائم فى يوم واحد ؟ اجلسا ! لو خالفتما تعليماتى فسأنتزع مخيكما لو كانت عندكما الأدوات اللازمة لهذا .. »

جلست المرأتان متضايقتين شاعرتين بالمهانة ، لكن مضطرتين تحت الضغط ، فأردف الطبيب :

ـ « كيف جرؤتما على مخالفة أوامرى ؟ »

نظرت (هستر) إلى (هانا) مناشدة .. فلم تكن إحدى المرأتين ترغب فى الرقص على هذه الأوركسترا القاسية ، ثم بدأت (هستر) تعبث فى ثنيات شالها ، ثم قالت :

ـ « لم نخالف أوامرك لسبب هين .. كان هذا واجباً ، ومع الواجب ليس لدى المرء خيار .. يجب أن يؤديه .. لقد كذبت الفتاة .. »

نظر لها الطبيب بضع دقائق مشدوهاً ، ثم انفجر :

ـ « كذبة ! هل فعلت هذا ؟ فليرحمنى الله .. إننى أقول مليون كذبة يومياً ، وكل واحد يفعل هذا بما فيه أنتما .. وهذا هو السبب الذى جعلكما تخالفان أوامرى ؟ هذه حماقة خالصة .. إن هذه الفتاة لا تستطيع أن تكذب كذبة تؤذى شخصاً وأنت تعرفين هذا جيداً .. »

ـ « لكنه فى النهاية كذب .. »

ـ « لعمر الله لم أسمع حماقة كهذه .. ألا تعرفين الفارق بين كذبة وأخرى ؟ »

ضمت (هانا) شفتيها كالملزمة ، وقالت :

ـ « كل الأكاذيب خطايا .. »

تململ الرجل نافد الصبر ، وقال :

ـ « ألم تقولى كذبة قط لحماية شخص من أذى أو عار ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « ولا حتى لحماية صديق ؟ »

- « نعم .. »

- « ولا أعزّ صديق ؟ »

- « نعم .. ولا حتى لأنقذ حياته .. »

- « ولا حتى لإنقاذ روحه ؟ »

- « ولا روحه .. »

بعد صمت طال ، قال الطبيب :

- « أسألكما معًا : لماذا ؟ »

- « لأن أية كذبة خطيئة ثمنها فقدان أرواحنا .. وخاصة لو متنا قبل أن نتوب .. »

نهض واتجه للباب ، وعند العتبة استدار وقال :

- « أصلحا نفسيكما .. تخلصا من هذا الإخلاص الرخيص الأنانى رغبة فى إنقاذ روحيكما التافهتين .. أنقذا روحيكما بالطريق الصحيح وإلا فلن تخسرا شيئًا بفقدانهما .. »

وقفت المرأتان شاعرتين بالانسحاق والمهانة .. لقد أوذيتا فى الصميم .. وأدركتا أنهما لن تسامحاه على هذه الكلمات أبدًا ..

* * *

بدأت المرأتان تقلقان على ابنة أخيهما اللطيفة والمرض الذى أصابها مؤخرًا ، وأرادتا أن تساعدا البائسة وتريحاها ..

قالت (هستر) دامعة :

- « سنساعدها .. لا توجد ممرضتان مثلنا .. لا ممرضة تقف مثلنا على فراش المريض حتى تسقط وتموت ، والله يعلم أننا سنفعل .. إن الطبيب يعرفنا جيدًا .. لن يجرؤ على إحضار ممرضة أخرى .. »

قالت (هانا) من وراء الضباب الذى غلف عويناتها :

- « يجرؤ ؟ إنه يجرؤ على كل شىء هذا الشيطان .. »

- « إنه ذكى ولن يفكر فى شىء كهذا .. »

جاء الطبيب فقال :

- « إن (مارجريت) مريضة .. ستسوء حالتها قبل أن تتحسن وعلى واحدة منكما أن تظل معها طيلة الوقت .. إن (هيلين) كذلك مريضة بالمرض ذاته .. »

تبادلت العمتان النظرات ، ثم صاحت (هستر) مذهولة :

- « كيف هذا ؟ لقد قلت منذ ساعات إنها سليمة كالبندقة .. »

أجاب فى هدوء :

- « كنت أكذب .. »

نظرت له (هانا) فى اشمئزاز ، وقالت :

- « كيف تقدم اعترافًا كهذا وأنت تعرف مقتنا لكل أنواع الكـ ... »

- « صه ! أنت جاهلة كالقطط .. كباقى البثور الأخلاقية تكذبين من الصباح إلى المساء ولا تعترفين بهذا .. وتشمخين بأنفك كالقديسين باعتبارك لا تقولين إلا الحقائق .. لقد قلتُ للطفلة كذبة كريمة كى أحميها من خيالها الذى كان سيجعلها تموت بالحمى خلال ساعة .. هلما .. هل كنتما ستأخذان الطفلة إلى فراش أمها لو عرفتما أننى قادم ؟ »

صمتت المرأتان ولم تتكلما ، فأردف :

- كنتما ستمتنعان عن ذلك ، ولو جئت بعد هذا المشهد وسألتكما عن سبب توتر الأم للذتما بالصمت ..

وهذه كذبة .. كذبة صامتة لكنها مؤذية .. هكذا ترين أنك لن تكذبى يا (هستر) لإنقاذ روح أعز صديقة لك ، لكنك كنت ستكذبين لتجنب مشاق الاعتراف بحقيقة مريرة .. »

ثم ودعهما وانصرف ..

* * *

الفصل الرابع

بعد اثنى عشر يومًا كانت الأم وابنتها فى قبضة مرض مخيف .. ولم يعد سوى القليل من الأمل ، وكانت العمتان شاحبتين مرهقتين لكنهما لم تتخليا عن عملهما ، وكان قلباهما محطمين من أجل اليانستين ..

وطيلة هذه الفترة كانت الأم تتوق بشدة إلى الطفلة ، وحين عرفت الأم أن مرضها هو التيفود أصابها الذعر ، وأرادت أن تتأكد من أن الطفلة لم تصب بالعدوى فى جلسة الاعتراف ..

أخبرتها (هستر) أن الطفلة سليمة تمامًا كما قال الطبيب ، وضايق هذا (هستر) لكن فرحة الأم جعلتها تشعر بالرضا .. صحيح أن بعض الخجل غالبها لكن ليس إلى حد أن تتمنى لو لم تفعل ..

قالت المرأة إنها ستتحمل بُعد طفلتها عنها ، لأنها تفضل الموت على أن تخاطر بحياة الطفلة ..

وعند الظهيرة ازدادت حالة (هيلين) الطفلة سوءًا ، وسألت الأم عنها ، فشحبت (هستر) ولم تخرج الكلمات من فمها .. هنا شحب وجه الأم بدوره وشهقت :

ـ « آه .. رباه ! هل هى مريضة ؟ »

هنا تمرد قلب العمة المعذبة ، وقالت :

ـ « لا .. لا .. إنها على ما يرام .. »

بدا السرور على المرأة وقبلت العمة ..

وفيما بعد حكت (هستر) القصة لأختها ، فقابلتها بنظرة لائمة وقالت :

ـ كانت هذه كذبة يا أختاه .. »

ـ « آه يا (هانا) .. كانت خطيئة لكنى لم أجد بوسعى شيئًا .. »

ـ « لا يهمنى .. كانت كذبة .. »

ـ « أعرف هذا .. لكن لو تكرر الأمر لفعلت الشىء ذاته .. »

- « إذن سآخذ مكانك مع الأم غدا .. سأخبرها بالحقيقة .. »

وفى الصباح كان لديها تقرير مروع لتقدمه للأم لكنها تماسكت ، وحين عادت كانت (هستر) تنتظرها شاحبة الوجه ترتجف ..

وفى الردهة قالت (هانا) وعيناها تسبحان فى الدموع :

- « ليسامحنى الله .. قلت لها إن الطفلة بخير ! »

- « فليباركك الله يا (هانا) ! »

ومن هذا الحين عرفت العمتان مدى قوتهما ، واستسلمتا فى تواضع لضروريات الموقف ، وفى كل يوم كانتا تقولان كذبة الصباح ، ثم تستغفران الله فى المساء ..

وفى كل يوم كان نبراس البيت يتهاوى شيئاً فشيئاً ، بينما العمتان ترسمان نضارتها للأم ، ويدمى قلبهما سرورها ..

وفى الأيام الأولى كانت الفتاة تكتب رسائل لأمها

أخفت فيها شأن مرضها ، وكانت الأم تحتضن هذه وتلثمها مرارًا ، وتداريها تحت وسادتها ..

وبعد أيام وهن العقل وتراخت اليد فلم تعد الفتاة قادرة على كتابة شىء ، وحارت العمتان فيما تقولانه للأم ..

إن أعذارهما تنفد بسرعة ..

* * *

الفصل الخامس

بعد قليل راحت العمتان تمارسان عملاً مرهقًا شاقًا في غرفة (هيلين) .. لقد حاولتا ـ بجدية وتصميم ـ بأناملها الجافة أن تزيفا الرسالة المطلوبة .. فشلتا مرارًا لكن أداءهما بدأ يتحسن ..

كانت دموعهما تسقط على الورقة فتلوثها ، وأحيانًا كانت كلمة غير محسوبة تجعل الرسالة خطرة ، فتبدآن من جديد ..

في النهاية حملت (هانا) الرسالة إلى الأم ، التي راحت تلتهم الكلمات الثمينة مرارًا ، وقالت :

ـ « آه لو كان بوسعي أن ألثمها أو آخذها بين ذراعيَّ ! »

قالت العمة :

ـ « كم تأثرت حين سمعتها تغني أغنية (لوخ لوموند) .. لقد حركت مشاعري .. إن غناء الشباب يحرك العواطف .. »



في النهاية حملت (هانا) الرسالة إلى الأم ، التي راحت تلتهم الكلمات الثمينة مرارًا ؟

ـ « أحسبنى لن أعيش لأراها ثانية .. »

تأثرت العمة فقالت :

ـ « لا تقولى هذا .. أرجوك .. »

ـ « لاتبكى.. إننى سأعيش .. سأحاول لو استطعت .. ماذا تفعل من دونى ؟ هل تتكلم عنى كثيراً ؟ »

ـ « نعم .. كثيراً جداً .. »

ـ « أعرف هذا .. إن الزوجة المدللة تعرف أنها محبوبة ، لكنها تطالب زوجها كل يوم بأن يقول هذا ، لمجرد متعة سماعة .. أرى (هيلين) استعملت القلم الحبر هذا المرة .. هذا أفضل .. إن الرصاص يبهت بسرعة ولسوف أندم على ذلك .. »

وانصرفت العمة (هانا) مثقلة القلب لترى الفتاة ..

كانت فى غيبوبة تامة ، تنظر لمن حولها بعينين مفتوحتين لا ترياان ، ومن شفتيها كانت كلمات مضطربة تخرج :

ـ « هل أنت لست أمى ؟ أنا أريدها .. كانت هنا منذ دقيقة هل ستعود سريعاً ؟ هل ستعود الآن ؟ كل شىء يدور ويدور من حولى آه يا رأسى ! »

وغابت ما بين خيال أليم إلى آخر ، فرطبت العمة (هانا) الشفتين الجافتين ، ومسحت الحاجبين الساخنين ، وهى تشكر الله على أن الأم سعيدة لا تعرف ما يدور ..

* * *

الفصل السادس

فى كل يوم كانت الطفلة تنحدر أسرع نحو القبر ، وأخبار العجوزين الملفقة عن صحتها تنقل لأمها السعيدة التى دنت نهايتها أيضًا ، واستمرت الرسائل المزيفة وكان قلباهما ينزفان وهما يريان لهفة الأم ..

فى النهاية جاء ذلك الصديق اللطيف .. جالب السلام والراحة للجميع .. وكانت الإضاءة خافتة والفجر يدنو ، حين عبرت الردهة أطياف صامتة متجهة إلى غرفة (هيلين) ، ووقفت حول فراشها ..

أما الفتاة فقد انغلق جفناها ، والملاءة على صدرها تعلو وتهبط بوهن ، بينما كانت شهقة أو دمعة تحطم الصمت ، وكانت الفكرة المسيطر على الأذهان هى حسرة هذا الموت .. الرحيل إلى الظلام العظيم بينما الأم ليست هنا لتخفف الآلام وتبارك ..

تحركت يدا الطفلة باحثة عن شىء ، فضمتها (هستر) إلى صدرها باكية ، وظهر ضوء غامر على

وجه الفتاة لأنها حسبت الذراعين ذراعى أمها ، وذهبت لنهايتها سعيدة ..

وبعد ساعتين ذهبت (هستر) إلى غرفة الأم ، فسألتها :

ـ « كيف حال (هيلين) ؟ »

ـ « هى بخير .. »

* * *

الفصل السابع

عند الظهر جهزوا المتوفاة ، وفى التابوت رقدت الشابة وعلى وجهها سلام عظيم .. وجاءت (هستر) راجفة لتقول للموجودين :

ـ « إنها تطلب منى ورقة ! »

ابيض وجه (هانا) لأنها لم تتوقع هذا .. لقد ظنت أن الخدمة انتهت .. تبادلت المرأتان النظرات ، ثم قالت (هستر) :

ـ « لا مفر .. لا بد من الورقة وإلا ستشك :

ـ « وستعرف .. »

وهكذا كتبتا رسالة جديدة حملتها (هستر) ، يقول سطرها الأخير :

« عزيزتى ...

« سنكون معًا ثانية .. أليس هذا خبرًا طيبًا ؟ الجميع يقول هذا .. »

قرأت الأم الرسالة ، وهمست :

ـ « يا للطفلة المسكينة ! كيف تتحمل حين تعرف إنها لا تشك فى شىء .. »

ـ « إنها تعتقد أنك ستتعافين .. »

ـ « كم أنت طيبة أيها العمة (هستر) ! دعينى أقبلك عنها ..

ضعى القبلة على ثغرها وقولى إن قلب أمها فيها .. »

وبعد ساعة ـ ودموعها تسيل ـ أدت (هستر) مهمتها العسيرة ..

* * *

الفصل الثامن

دوّى صوت جرس عبر الريح ، فتساءلت الأم :

ـ « الناقوس يقرع أيتها العمة (هانا) ! روح مسكينة قد رحلت كما سأفعل أنا .. لن تتركاها تنسانى ؟ »

ـ « لا .. لن تنسى .. »

ـ « هل تسمعان هذه الأقدام فى الردهة ؟ »

ـ « إنهم مجتمعون من أجل (هيلين) المسكينة حبيسة البيت .. جاءوا ليسمعوها بعض الموسيقا التى تحبها ، وظننا أنك لن تتضايقى .. »

ـ « لا .. لا .. أعطياها كل ما تريده ! »

وبعد فترة صمت قالت :

ـ « كم أن هذا لطيف ! إنه أرغنها .. هل تعزفه بنفسها ؟ هذه المقطوعة حزينة جميلة .. إنها تفتح أبواب السماء لى ! لو استطعت أن أموت الآن ! »

وحين انتهى اللحن ، استراحت روح أخرى من عذاب الحمى ، وقالت الأختان وهما تنوحان حول جثة الأم :

ـ « من الجميل أنها لم تعرف قط .. »

* * *

عند منتصف الليل جلستا تبكيان ..

رأتا شخصاً باهر الجمال يتألق تألقاً غير أرضى ، دخل عليهما وقال :

ـ « للكذابين موضع فى جهنم يحترقون فى نيرانه للأبد .. فتندما ! »

سقطت العجوزان على ركبتيهما أمامه ، وانحنى رأساهما ، لكن لسانيهما التصقا بسقفى فميهما ، وأصابهما الخرس ..

وأخيراً قالت إحداهما :

ـ « إن خطيئتنا عظيمة تجللنا بالعار .. نحن

مخلوقات تعسة تعرف ضعفها الإنسانى ، ولو خضنا تلكم السبل الوعرة ثانية فلسوف يكون الفشل نصيبنا .. »

ورفعتا رأسيهما فى تضرع ، لأن الشخص قد ذهب ، وإن كان قبل ذهابه قد همس لهما بمصيرهما ..

* * *

الفصل التاسع

أهى الجنة أم النار ؟

إدوارد ميلز وجورج بت ..

كانا متباعدين فى القرابـة .. ربما كانا ولدى عم من الدرجة الخامسة أو شيئًا كهذا ، وكانا طفلين يتيمين ، لذا تبناهما آل (برامز) اللذان لم يرزقا بأطفال ..

كان آل (برامز) يقولان لهما :

ـ « كونـا مخلصـين رزينيـن منتجيـن .. وراعيـا الآخرين لتنجحا فى الحياة »

وكان الطفلان قد سمعا هذا آلاف المرات حتى فهماه ، وكان بوسعهما أن يردداه قبل أن يتعلما الصلاة .. لقد طبعت هذه العبارة على باب غرفـة الأطفال ، وكـانت أول عبارة تعلما قراءتهـا .. وصـارت هـذه هى قاعدة حياة (إدوارد ميلز) ..

أحيانًا كان الزوجان (برامز) يغيران العبارة قليلاً فيقولان :

ـ « كونـا مخلصين نقيين منتجين .. ولـن تحتاجا إلى أصدقاء .. »

كان الطفل (ميلز) مريحًا لكل من حوله ، وحين كان

يطلب الحلوى ولاينالها يصغى إلى العقل ، أما الطفل (بت) فكان يبكى حتى يحصل على الحلوى بأى ثمن .. كان الطفل (ميلز) يعنى بلعبه أما الطفل (بـت) فكـان يدمرها فى وقت قصير ، ثـم يتحول إلى جحيم حتى إنهـم ـ كى يسـود السلام المنـزل ـ كانوا يقنعون (ميلـز) الصغير بالتخلى عن لعبه لأخيه ..

وحين كبر الطفـلان صـار (جورج بـت) مكلفًا .. لقد كان قليل الاهتمام بثيابه ، لهـذا كـان يرتدى ثيابًا جديدة دائمًا ، بينمـا لـم تكـن هـذه هـى الحالـة مـع (إدوارد ميلز) ..

ونمـا الطفـلان سريعًا .. وظل (إدوارد) مريحًـا ، بينمـا كـان (جـورج) همًّـا متزايدًا ، وكـان يكفـى أن تقول لـ (إدوارد) :

ـ « كنت أفضل ألا تفعل هذا .. »

سـواء كنت تتحدث عن السباحة أو النزهة أو جمع الفراولـة أو الذهـاب إلى السيرك ، وكل الأشياء التـى يحبها الصبية ..

كـانت هـذه الإجابـة كافيـة لـ (إدوارد) لكـن ليـس لـ (جورج) ، الذى يصرّ بعنف على ما يريد ، وبالطبع

لم يظفر طفل آخر بكل نزهات السباحة وجمع الفراولة والذهاب إلى السيرك ، ولم يفز طفل آخر بوقت أمتع ..

وكان آل (برامز) لا يسمحان للطفلين بالسهر بعد التاسعة .. فكان (إدوارد) يبقى فى الفراش ، لكن (جورج) كان يخرج من النافذة ويلهو حتى منتصف الليل ..

وكان مستحيلاً إقناع (جورج) بالتخلى عن عاداته السيئة ، إلا بالكثير من التفاح والبلى ..

لم يحتج (إدوارد) إلى جهد كبير فى تربيته ، لأنه كان طيبًا يعتبره الجميع ممتازًا ، لكن آل (برامز) عانوا كثيرًا فى تربية (جورج) والدموع فى عينيهما ..

تدريجيًا كبر الطفلان إلى سن العمل .. وأرسلهما الأبوان لتعلم حرفة .. وقد ذهب (إدوارد) راضيًا لكن (جورج) كان غاضبًا ..

عمل (إدوارد) بجد وإخلاص وكف عن أن يكون عبئًا ماليًا على آل (برامز) ؛ لكن (جورج) فرّ ، وكلّف مستر (برامز) كثيرًا من المال والجهد كى يجده .. لكنه هرب ثانية .. ثم هرب ثالثة ومعه بعض

الأشياء الثمينة ، وعانى مستر (برامز) كثيرًا ، بالإضافة إلى محاولة إقناع المعلم بألا يرسل الصبى إلى الشرطة بتهمة السرقة ..

وواصل (جورج) مهمة تحطيم القلبين العجوزين اللذين يحاولان أن يحمياه من الخراب ..

وكان (إدوارد) منذ طفولته مولعًا بمدارس الأحد ، وجمع التبرعات للفقراء ، وبرامج منع التدخين ومنع الشتائم البذيئة، وكل الجمعيات المهتمة بمعاونة البشر .. لكن هذا لم يثر اهتمام أحد لأن هذا هو (الاتجاه الطبيعى) للإنسان ..

وفى النهاية مات آل (برامز) ، وأوصيا فى الوصية بفخرهما وحبهما لـ (إدوارد) وبعقار صغير لـ (جورج) لأنه كان يحتاج إليه ، بينما (إدوارد) لا يحتاج إلى شىء كهذا لأن العناية السماوية ترعاه ..

واشترط العجوزان أن يكون (إدوارد) شريكًا لـ (جورج) ، وإلا ذهب العقار إلى مؤسسة خيرية اسمها (جمعية أصدقاء المساجين) ..

وتوسل الزوجان إلى (إدوارد) أن يأخذ مكانهما في العناية بـ (جورج) وحمايته من نفسه ، ويتواضع أذعن (إدوارد) ..

لم يكن (جورج) شريكًا مفيدًا .. كان سكيرًا يعلن جلده وعيناه تلك الحقيقة غير السارة في كل لحظة ..

وكان (إدوارد) يعشق فتاة حسناء ، وأحبا بعضهما بإخلاص ، لكن (جورج) راح يلاحقها دامعًا متوسلا ، وفي النهاية ذهبت دامعة العينين إلى (إدوارد) وقالت إن واجبها المقدس واضح أمامها ، ولن تدع رغبتها الأنانية تتدخل .. يجب أن تتزوج (جورج) المسكين وتصلحه .. لسوف يحطم هذا قلبها ، لكن الواجب هو الواجب ..

وهكذا تزوجت (جورج) وتحطم قلبها وقلب (إدوارد) ..

وما إن شفى من آلامه حتى تزوج (إدوارد) بدوره ..

وظفرت الأسرتان بأطفال ، وحاولت (ماري) جهدها كي تصلح زوجها لكن هذا كان عسيرًا ، وكافح طيبون كثيرون من أجل (جورج) ، لكنه اعتبر هذه الجهود حقه وواجبهم ..

وانغمس في القمار حتى تراكمت عليه الديون ، وذات صباح استولت الشرطة على الشركة ، ووجد ابنا العم نفسيهما دون مليم واحد ..

كانت الأوقات عصيبة ، واضطر (إدوارد) إلى أن يعيش مع أسرته في غرفة على السطح ، وراح يجوب الشوارع بحثًا عن عمل ..

وأدهشه كم أن وجهه لم يعد يلقى أي ترحيب ، وكيف أن اهتمام الناس به قد تبخر ..

ابتلع غمه ، وفي النهاية وجد عملاً في حمل القرميد على كتفه في (غلق) لأعمال البناء ..

إلا أنه ظل محافظًا على التزامه نحو المؤسسات الأخلاقية التي كان عضوًا بها ..

لكن (جورج) كاد يموت من فرط الاهتمام به .. لقد وجده ذات صباح ثملاً غارقًا في المزراب ، فأنقذته إحدى سيدات الجمعيات الخيرية ، واشتركت له في الجمعية ، وجعلته محترم المظهر ، ووجدت له وظيفة .. ونشرت الصحف هذا الموضوع ..

واهتم الرأي العام بأمر البائس ، وجاء كثيرون

يساعدونه كى يصلح ذاته ، ولمدة شهرين ظلَّ طيب الذكر ، ثم سقط ثملا فى المزراب مرة أخرى .. من ثم ساد الحزن والغمَ ، إلا أن الأخوة النبلاء أنقذوه ثانية ، ونظفوه وأطعموه وطربوا لموسيقا ندمه الحزينة ..

هكذا غرقت البلدة فى الدموع السعيدة لأن جهودها نجحت فى تأهيل الوحش المسكين .. وأقيم احتفال كبير ، وبعد بعض الخطب المؤثرة قال رئيس الجلسة فى شجن :

ـ « سنرى مشهدًا لن يراه كثيرون هنا بعيون جافة من الدمع .. »

وتقدم (جورج) تحرسه النساء إلى المنصة ، حيث بدأت عملية الاكتتاب لمساعدته فصفق الجميع ، وبكى الجميع سرورًا ..

وصار (جورج) بطل المدينة ونجمها ..

صحيح أنه كان يعود للزلل كلما مرت ثلاثة أشهر ، لكن إنقاذه كان يتمَ فى كل مرة ..

فى النهاية راح يطوف البلاد محاضرًا ، يحكى للناس قصته مع التوبة ، وازدادت ثروته ..

كان الناس يثقون به حتى إنه استطاع استخدام اسم مواطن معروف كى يسحب مبلغًا ضخمًا من المصرف ، وتكاثرت الضغوط من أجل تخفيف الحكم عليه ، وذهب إلى السجن ثم خرج منه بعد عام ، لتلقاه (جمعية أصدقاء المساجين) على الباب براتب محترم ..

وكان (إدوارد) قد تقدم لهذه الجمعية من قبل طالبًا المساعدة ، لكن قضيته انتهت بسؤال واحد :

ـ « هل دخلت السجن من قبل ؟! »

وكان (إدوارد) قد صار صرافًا لمصرف البلدة ، لكنه لم يثق (جورج) قط .. (جورج) الذى اعتاد الغياب كثيرًا عن البلدة لأسباب غامضة ..

وفى ذات مساء مطير دخل لصوص ملثمون مسلحون إلى المصرف ، فوجدوا (إدوارد) وحده هناك .. أمروه أن يعطيهم الأرقام السرية للخزنة .. فرفض .. هددوا حياته .. فقال لهم إن رؤساءه وثقوا به وهو لن يخون هذه الثقة ، ويمكنهم قتله إذا أرادوا ..

لهذا قتله اللصوص ..

وراح المخبرون يحققون فى الحادث ، واتضح أن المتهم الأساسى هو (جورج بت) ..

سادت الشفقة على أرملة الصراف الميت وأطفاله اليتامى ، وتوسلت الجريدة المحلية لرؤساء المصارف أن يدعموا أسرته التى صارت بلا عائل .. وتم تجميع نحو خمسمائة دولار بمتوسط ٣/٨ دولار لكل مصرف من مصارف الاتحاد ..

أما المصرف الذى يعمل به الصراف ، فقد أعرب عن امتنانه للشهيد ، بأن أعلن أن حسابات الرجل لم تكن دقيقة تماماً ، وأن هناك اختلاساً فى العهدة ، ولربما ضرب نفسه بنفسه كى يدارى ما اقترفه ..

تم تقديم (جورج) للمحاكمة ، وبدا أن الجميع نسى الأرملة واليتامى فى قلقهم على (جورج) المسكين .. لكن كل المال والنفوذ لم ينجحا فى تبرئته ، وتم الحكم عليه بالإعدام ..

أرهقت طلبات العفو الحاكم ، تحملها إليه بنات صغيرات وعوانس عجوزات حزينات ، وأرامل ويتامى .. لكن لا .. لم يرضخ الحاكم لهذا ..

وامتلأت زنزانة (جورج) بالحسناوات والزهور والدموع والتراتيم .. حتى جاء يوم المشنقة ..

وتم نقل جثة (جورج) فى موكب فخيم فى سيارة سوداء ، أمام جمهور باك من أفضل أبناء المنطقة ، وفى كل يوم كانت زهور جديدة توضع على قبره .. وعلى قبره حفرت هذه الكلمات :

- « لقد قاتل كما يجب أن يكون .. »

وعلى قبر الصراف الشجاع نقشت هذه الكلمات :

- « كن نقيًا مخلصًا رزينًا منفتحًا ، ولن ...... »

ولا يعرف أحد مصير باقى العبارة .. لكن هكذا وجدوها ..

تعيش أسرة الصراف فى ظروف شنيعة الآن .. ويقال .. لكن لا يهم .. هناك أناس طيبون يهمهم ألا يمر عمل شجاع كعمله دون جائزة .. وقد قاموا بجمع ٤٢٠٠ دولار وبنوا كنيسة لذكراه .

* * *

خادم الجنرال (واشنطن)(*)

إن الجزء المثير من حياة هذا الرجل الشهير قد بدأ بعد موته ، ومعنى هذا أن التفاصيل المهمة فى سيرته ظهرت بعد أول موت له ..

لم يسمع عنه أحد حتى تلك اللحظة ، ولكن من لحظتها لم نكف قط عن السماع عنه ، كانت مهنته مرموقة جدًا وأظن أن قصة حياته ستكون إضافة مهمة لأدب السير الأمريكى ، لهذا قمت بجمع هذه المادة من مصادر أصلية موثوق بها ، وها أنذا أقدمها للعالم ..

لقد استبعدت من هذه المعلومات كل ما هو مشكوك فيه ، وهدفى هو أن أقدم هذه السيرة للمدارس لتربية شباب بلادى ..

(*) ليست هذه قصة بالضبط بل هى مقال ساخر يتهكم على الصحف الشهيرة فى أمريكا وقتها ، وللكاتب أعمال كثيرة مماثلة هى خليط بين القصة والمقال الساخر ..

كان اسم الخادم الشهير للجنرال (واشنطن) هو (جورج) ، وقد خدم سيده لمدة نصف قرن وفاز بثقته ومودته ، وبعد هذا كان واجبه المؤسف هو أن يوصل سيده المحبوب إلى القبر فى (بوتوماك) ..

وبعد عشر سنوات ـ عام ١٨٠٩ ـ مات هو نفسه ، مفعمًا بالسنين والشرف ، ونعاه كل من عرفوه ..

تقول جريدة (بوستون جازيت) عن هذا الحدث :

> (جورج) الخادم الأثير لـ (واشنطن) قد مات فى (رتشموند) يوم الثلاثاء الماضى عن خمسة وتسعين عامًا ، وهى سن ناضجة . لم يكن ثمة وهن فى قواه العقلية ، وقد ظل فكره متماسكًا حتى قبل موته ببضع دقائق . لقد كان موجودًا حين انتخب (واشنطن) رئيسًا للجمهورية للمرة الثانية ، وكذلك فى جنازته ، ويذكر كل الأحداث المجيدة المرتبطة به .

من هذا التاريخ لم نسمع شيئًا عن الخادم العظيم ، حتى ١٨٢٥ حين مات ثانية .. خرجت جريدة فى (فيلادلفيا) تقول :



من هذا التاريخ لم نسمع شيئًا عن الخادم العظيم ، حتى ١٨٢٥ حين مات ثانية ..

فى (ماكون توفى الأسبوع الماضى رجل زنجى يدعى (جورج) . وكان هذا الفقيد هو خادم (جورج واشنطن) المفضل . وقد مات بفعل الشيخوخة عن ٩٥ عامًا . وظل بكامل قدراته العقلية حتى وفاته وكان بوسعه أن يتذكر انتخاب (واشنطن) رئيسًا لفترة ثانية ، ودفنه وجنازته ، واستسلام (كورنواليس) ومعركة (ترمتون) وأحزان وادى (فروج) ..

وقد ذهب الفقيد إلى القبر مع كل آل (ميكون) .

وفى الرابع من يوليو ١٨٣٠ وفى ١٨٣٤ و ١٨٣٦ تم نشر الخبر ذاته تقريبًا فى موضع الصدارة من صحف أخرى ..

وفى نوفمبر ١٨٤٠ مات الرجل ثانية ، وكتبت جريدة (سانت لويس ريبابليكان) فى الخامس والعشرين من الشهر :

أثر نفيس آخر من آثار الثورة قد رحل

توفى أمس فى هذه المدينة (جورج) الخادم الأثير لـ (جورج واشنطن) عن عمر ٩٥ عامًا ، وكان

يتمتع بذاكرة قوية ، وكان يذكر الانتخاب الأول والثانى لـ (واشنطن) واستسلام (كورنواليس) وموقعة (ترمتون) ومعاناة جيش الوطنيين فى وادى (فروج) وإعلان الاستقلال وأشياء أخرى كثيرة ، إن قليلاً من البيض يستدعى موتهم الحزن الذى سببه موت هذا الزنجى المسن . وكانت جنازته عظيمة .

وفى السنوات العشر التالية بدأت أخبار وفاة جديدة للرجل تظهر فى أرجاء القطر ، وظلت تظهر فى مواضع مهمة من صحف عديدة ، وبنجاح تام .

إلا أنه فى خريف عام ١٨٥٥ مات الرجل مرة أخرى ، وتقول صحف (كاليفورنيا) :

بطل عجوز قد مات

مات فى (داتشفلات) (جورج) خادم الجنرال (واشنطن) عن عمر خمسة وتسعين عامًا ، إن ذاكرته لم تخذله حتى النهاية ، وكان يستطيع أن يتذكر أول وثانى انتخاب لـ (واشنطن) ، وموقعة (كورنواليس) و(بانكرهيل) وإعلان الاستقلال وهزيمة (برادوك) .

ويقال إن عشرة آلاف مواطن حضروا الجنازة ..

أما آخر مرة مات فيها (جورج) فكانت عام ١٨٦٤ ، وحتى أسمع العكس أفترض أنه مات حقًا فى تلك المرة ، وقد كتبت جريدة (متشيجان) عن هذه الأحداث الأسيفة :

رمز آخر من رموز الثورة قد ذهب

(جورج) خادم (واشنطن) قد توفى فى (دترويت) الأسبوع الماضى ، عن سن خمسة وتسعين عامًا ، ولم تضطرب ذاكرته قط حتى النهاية ، وكان يذكر أول وثانى انتخاب لـ (واشنطن) واستسلام (كورنواليس) وموقعة (ترمتون) وإعلان الاستقلال وهزيمة (برادوك) ، وإلقاء صناديق الشاى فى خليج (بوسطون) ، وهبوط الحجاج .

لقد مات محترمًا ، ومشى فى جنازته عدد هائل من المواطنين .

لقد ولى الخادم المخلص العظيم .. لن نراه ثانية حتى يعود .. لقد انتهى من مهنة الموت التى يمارسها بروعة ، وهو الآن ينام فى سلام كما ينام كل من استحق راحته ..

لقد كان فى كل الأحوال رجلاً مرموقاً ، وكلما عاش أكثر كلما ازدادت ذاكرته قوة وشمولاً ، ولو مات ثانية فلا بد أنه سيتذكر فى هذه المرة اكتشاف أمريكا ذاتها ..

أعتقد أن هذه السيرة التى قدمتها له كاملة تماماً ، برغم أننى أفترض أنه مات مرة أو مرتين فى أماكن غامضة فشلت الصحافة فى معرفتها ..

وكل ما أجده فى ملاحظاتى عن موته هو أن الرجل كان مصراً - فى كل المقالات - على أن يموت فى الخامسة والتسعين .. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً .. ربما فعله مرة أو مرتين ، لكنه لا يستطيع أن يظل فى سن خمسة وتسعين للأبد .. من المفترض أن يكون عمره ١٥١ سنة حين مات آخر مرة .. لكن سنه لم تمش بنفس معدل ذاكرته ..

لقد تذكر - حين مات آخر مرة - هبوط الحجاج الذى حدث سنه ١٦٢٠ .. لو حدث هذا وهو فى سن العشرين فمعنى هذا أن عمره كان ٢٦٠ سنة حين ترك الحياة نهائياً ..

لقد انتظرت كثيراً لأرى إن كان سيموت ثانية ، حتى أقدم سيرة حياته للأمة الثكلى ..

■ ملحوظة : أرى من الأوراق أنه مات مرة أخرى فى (أركنساس) ، ومعنى هذا أن ذلك المخادع مات ست مرات ، وفى كل مرة فى مكان جديد .. لقد كف الآن عن أن يكون موضوعاً جديداً .. لقد ولى سحره .. لقد تعب منه الناس .. فدعوه يرقد ..

إن هذا الزنجى حسن النية لم يكلف ستة مجتمعات تكاليف دفنه ، ويجعل عدة عشرات من الألوف يتبعونه إلى قبره كل مرة ..

دعوه يرقد للأبد الآن ، واجعلوا تلك الصحف تتلقى أكبر توبيخ فى حياتها ، وأخبروا العالم أن خادم (واشنطن) قد مات ثانية !

* * *

إلهــام ابن عامين ..

يبدو أن كل الرضع لديهم عادة قبيحة وقحة هى أن يقولوا أشياء ذكية فى كل الأحوال ، وخاصة تلك المواقف التى يفترض ألا يقولوا فيها شيئًا على الإطلاق ..

ومن العينات المنشورة لهذه الأشياء الذكية ، أن جيل الأطفال الحالى أفضل من البلهاء بقليل ، ولا بد أن آباءهم ليسوا أفضل من أطفالهم إلا بقليل ..

يبدو أننى أتحدث بشىء من الحرارة ، ولا أقول بنوع من الضغينة الذاتية .. ولا أظن أن سبب هذا هو الغيرة لأننى لم أقل شيئًا ذكيًا وأنا رضيع .. حاولت مرة أو اثنتين لكنى فشلت ..

لم يتوقع أبواى أن أقول شيئًا ذكيًا لهذا أهملونى مرة ، وضربونى على ردفىَّ باقى المرات ..

لكننى أشعر بقشعريرة ويتجمد دمى ، كلما فكرت فيما عساه كان يحدث لو قلت شيئًا ذكيًا مما يقوله

أطفال اليوم وسمعنى أبى .. ولو كان قد سلخنى حيًا لبدا له هذا لينًا عقابيًا نحو شخص آثم كهذا ..

كان رجلاً صارمًا غير مبتسمٍ ، يكره كل علامات عدم النضج .. ولو قلت له شيئًا كهذا فبالتأكيد كان سيدمرنى .. حتمًا كان سيفعل إذا أتيحت له الفرصة ، لكنها لم تتح له لأننى كنت أملك الحصافة التى تجعلنى أبتلع بعض سمّ (الستركنين) أولاً ثم أقول أشيائى الذكية ..

إن تاريخ حياتى قد تلطخ فقط بدعابة لفظية واحدة سمعها أبى وبحث عنى فى أربعة أو خمسة متاجر راغبًا فى قتلى ، ولو كنت ناضجًا وقتها لعذرته لكنى كنت طفلاً ، ولم أستوعب شقاءه مما حدث ..

ذات مرة قلت بعض هذه (الأشياء الذكية) وكادت تحدث انفجارًا بين أبى وبينى ..

كان أبى وأمى وعمى (أفرايم) وزوجته وآخران ، وكانت المحاورة تدور حول اسم لى .. وكنت على الأرض ألعب بعضاضة مطاطية ، لأننى كنت قد تعبت من قطع أسنانى بأنامل الناس ..

هل لاحظت مدى المعاناة التى تسببها لك محاولة شق أسنانك بعض أنامل المربية ؟ وكيف أنه مرهق أن تحاول شق أسنانك بأصبعك الكبير ؟ بالنسبة لى أشعر أن هذه الأشياء حدثت أمس ..

لكنى أحيد عن الموضوع ..

كنت هناك ألعب بعضاضتى ، وأظن أننى نظرت إلى ساعة الحائط فلاحظت أنه خلال ساعة وخمس وعشرين دقيقة سيكون عمرى أسبوعين ، وخطر لى أننى فعلت القليل كى أستحق كل السعادة التى تنتظرنى عما قريب ..

قال أبى :

- « إن (أبراهام) اسم جيد .. لقد كان اسم جدى (أبراهام) .. »

وقالت أمى :

- « إنه اسم جيد بالفعل .. ليكن هذا واحداً من أسمائه .. »

قلت :

- « إن (أبراهام) يناسب اسم موثق عقود .. »

قطب أبى وبدا السرور على أمى ، وقالت عمتى :

- « يا له من طفل عزيز ! »

قال أبى :

- « إن (إيزاك) و(جاكوب) اسمان جيدان .. »

وافقت أمى وقالت :

- « ما من أسماء أفضل ؟ »

قلت :

- « حسن .. هذان اسمان مناسبان لكما أنتما .. ناولينى (الشخشيخة) من فضلك ، فلا يمكن أن أمضغ العضاضة طيلة اليوم .. »

وحتى هذه اللحظة لم ألق التشجيع الذى يلقاه الأطفال الأذكياء الآخرون . لقد قطب أبى وبدا الحزن على أمى ، وبدا أن عمى يفكر فى أننى ربما تماديت كثيراً ..

عضضت العضاضة وهشمت (الشخشيخة) فوق رأس القط ، لكننى لم أقل شيئاً ..

قال أبى :

ـ « إن اسم (صمويل) جيد .. »

وضعت ما فى يدى إلى جوار المهد ، حيث ساعة عمى الفضية ولعبة الكلب والجندى القصديرى ، وكل الأشياء التى اعتدت أن أتفحصها وأتأملها وأهشمها حين أطلب المتعة الكاملة ..

قلت لنفسى إنه لو كانت الأمور ستسوء أكثر فأنا مستعد ، وبصوت عال قلت :

ـ « أبى .. لا أستطيع أن أحمل اسم (صمويل) .. »

ـ « ولماذا يا بنى ؟ »

ـ « إن لدى نفورًا خاصًا من هذا الاسم .. »

ـ « إن رجالاً عظيمى الشأن حملوا اسم (صمويل) يا بنى .. »

ـ « مازال علىّ أن أعرف أولهم .. »

ودارت مشادة عنيفة بيننا ، وحين انتهت كنت قد حملت اسم (صمويل) وضربة قوية ، وبوساطة هذا الإذعان هدأ غضب أبى ، وتجاوزنا سوء الفهم ، الذى

كان سيوتر علاقتنا للأبد لو أننى تخليت عن التعقل ..

لكن ـ بعد ما عرفنا هذا الموقف ـ ماذا كان أبى سيفعل لو قلت شيئًا سخيفًا من الأشياء التى يقولها الأطفال الذين عمرهم عامان الآن ؟ فى رأيى كان الأمر سينتهى بإحدى جرائم قتل الرضع فى أسرتنا .

* * *

قصة رجل من (كاليفورنيا) ..

منذ خمسة وثلاثين عامًا كنت أجول فى (ستانيزلوز) ، أضل طريقى طيلة اليوم ، وأبعثر ما يملأ القبعات من الغبار هنا وهناك ، متوقعًا فى كل لحظة أن أقع على خبطة ثرية لكنى لا أجدها أبدًا ..

كانت المنطقة لذيذة لطيفة ملأى بالغابات ، وفى وقت ما كانت مزدحمة ، لكن الناس قد اختفوا الآن وصارت الجنة الخلابة مكانًا منعزلاً .. لقد هجرها الناس بعد حملة التنقيب عن الذهب ..

يومًا ما كانت هنا مدينة مزدحمة لها صحف ومصارف ومطافئ وعمدة .. لم يعد منها الآن سوى مرج زمردى بلا علامة واحدة على أن حياة كانت هناك ..

سرت قرب الريف عبر الدروب المتربة .. ومن حين لآخر كنت أرى أجمل الأكواخ وأكثرها راحة تلتف حولها الأغصان ، حتى لتختفى الأبواب والنوافذ عن العين

تمامًا .. مما يوحى بأن هذه بيوت هجرها الباحثون عن الذهب منذ أعوام ، ولم يستطيعوا أن يبيعوها أو يمنحوها لأحد ..

ومن حين لآخر كنت ترى أكواخًا خشبية من عهود التنقيب الأولى ، بناها أوائل الباحثين عن الذهب قبل عصر بناء الأكواخ الجميلة ..

وفى بعض الأحوال كانت هذه الأكواخ مسكونة ، ويمكنك أن تثق أن ساكنها هو بنفسه الرائد الذى بناها .. ويمكنك كذلك أن تثق أنه كان يملك فرصة العودة لوطنه ثريًا لكنه لم يفعل .. فقد ما له وقرر أن يقطع كل علاقة له بالأقارب والأصدقاء من وقتها ، شاعرًا بالخزى والفشل .. وهكذا يصير شأنه شأن من مات ..

وحول (كاليفورنيا) فى ذلك الزمن ، كنت تجد مجموعة من هؤلاء الموتى الأحياء الذين تخلى عنهم الكبرياء ، وشاب شعرهم ، والذين كانت خواطرهم كلها مزيجًا من الأسف والحنين .. أسف على العمر الذى ضاع ، وحنين للخروج من المعركة والانتهاء منها ..

كانت أرضًا منعزلة لا صوت فيها .. لكن أزيز الحشرات بقى .. لاشىء يجعل معنوياتك مرتفعة أو يجعلك سعيدًا بالحياة ..

★ ★ ★

لذا حين قابلت هذا المخلوق عصرًا ، شعرت بالرضا وارتفاع معنوياتى .. كان فى الخامسة والأربعين يقف على باب أحد الأكواخ التى وصفتها لك ..

لكن الكوخ لم يكن مهجورًا .. كان منظره يدل على وجود من يُعنى به ويدلله .. وكان فناؤه الأمامى حديقة من الزهور النضرة ..

دعانى الرجل وطلب إلى أن أعتبر نفسى فى دارى ، وكانت هذه عادةِ البلاد ..

كان جميلاً أن أجد نفسى فى مكان كهذا ، بعد أسابيع من الحياة فى أكواخ عمال المناجم ، بأرضيتها القذرة والأسرَة غير المرتبة ، والأطباق القصديرية والفول والقهوة السوداء .. ولا أمارة للزينة إلا بعض صور من الصحف للحرب فى الشرق يلصقونها على الجدران ..

لم أصدق أننى سأسعد إلى هذا الحدَ إذ أرى ورق حائط وسجادة وكتبًا ومزهرية صينية ، ومئات اللمسات التى تبعثرها يد المرأة فى المنزل ، وهى أشياء يراها الإنسان دون أن يدرك أنه يراها ، لكنه يفتقدها إذا هى أخذت منه ..

كانت السعادة التى فى قلبى قد ظهرت فى وجهى ، ورآها الرجل فقال :

ـ « هذه لمساتها .. لقد فعلت كل شىء بنفسها .. »

ونظر حوله بنظرة هيام مفتون ..

كانت هناك زينة يابانية موضوعة فوق إطار إحدى الصور ، فأعاد ترتيبها بأنامل حذرة ، وتراجع للوراء أكثر من مرة كى يتفقد التأثير ، ثم قال :

ـ « إنها تفعل ذلك .. لا يمكنك أن تعرف ما ينقص هذا الإطار حتى تفعل هى ذلك .. لا يمكنك الفهم قبل أن يتم الأمر .. لكنك لا تستطيع أن تعرف القانون المتحكم فى هذا .. شىء أشبه باللمسات التى تضعها الأم على شعر الطفل بعد تمشيطه .. لقد راقبتها كثيرًا وأستطيع أن أفعل ما تفعله هى ، برغم أننى لا أعرف قانون ذلك .. لكنها تعرف القانون ..

تعرف (لماذا) و (كيف) كليهما .. لكننى لا أعرف (لماذا) ولا أعرف (كيف) .. »

واقتادنى لغرفة النوم حيث أغسل يدى ..

إنها غرفة نوم لم أر مثلها منذ أعوام .. لحاف أبيض .. وسادات بيضاء .. بساط .. ورق حائط .. منضدة زينة .. مرآة .. أدوات تجميل .. ثم حوض غسيل به ماء وإبريق وصابون .. وحوالى دستة من المناشف النظيفة جدًا والبيضاء ، حتى إن المرء لا يستطيع استعمالها دون أن يشعر بأنه يدنسها ..

قال بكلمات ممتنة :

ـ « كل هذا عملها .. لا يوجد شىء هنا لم يمس يدها .. »

كنت أجفف يدى وأتأمل الغرفة ، كما يفعل المرء حين يرى مكانًا جديدًا ، حيث كل ما يراه يريحه ..

وأدركت بطريقة لا يمكن تبريرها أن هناك شيئًا هنا يريد الرجل أن أراه بنفسى .. وهو يساعدنى بتلميحات من عينيه ، لذا بحثت حولى مرارًا وفى النهاية عرفت أننى أنظر مباشرة إلى الشىء ..

فرك يديه فى مرح وصاح :

ـ « عرفت أنك ستجدها ! إنها صورتها ! »

اتجهت إلى الإطار على الجدار ، وهو مصنوع من خشب الجوز ، وبه صورة عتيقة من التى كانت تطبع على سطح من فضة ، تمثل أجمل وجه طفولى رأيته فى حياتى ..

ـ « فى عيد ميلادها الأخير كانت تسعة عشر عامًا ، وهو يوم زواجنا .. وحين تراها .. آه .. انتظر حتى تراها .. »

ـ « ومتى تأتى ؟ »

ـ « إنها تزور أهلها .. إنهم يعيشون على بعد أربعين أو خمسين ميلاً .. لقد سافرت منذ أسبوعين .. »

ـ « ومتى تعود ؟ »

ـ « اليوم هو الأربعاء ؟ ستعود يوم السبت فى التاسعة مساءً على الأرجح .. »

شعرت بخيبة أمل حادة ، وقلت :

ـ « أنا آسف .. سأكون قد رحلت .. »



ـ «ومتى تأتى ؟» :

ـ «إنها تزور أهلها .. إنهم يعيشون على بعد أربعين أو خمسين ميلاً ..

ـ « لا .. لن ترحل .. سيخيب أملها هذه المخلوقة الجميلة .. »

ولو أنها قالت لى هذه الكلمات لما تأثرت بهذا القدر .. كان لدىَّ شوق عارم كى أراها ، حتى إننى شعرت بالخوف ، وأزمعت أن أترك هذا المكان من أجل راحة بالى ..

هنا قال لى :

ـ « كما ترى ، إنها تحب أن ترى الضيوف .. الأشخاص الذين يعرفون أشياء ويستطيعون الكلام .. إن هذا يسعدها .. إنها تهوى معرفة كل شىء ويمكنها الحديث كطير .. والكتب التى تقرؤها ! إنك ستذهل .. لا تذهب .. إنه وقت قصير جداً .. »

عاد بعد قليل بصورة صغيرة لها ووضعها أمامى ، وقال :

ـ « هلم .. قل فى وجهها إنك كنت تستطيع البقاء لكنك لم تفعل .. »

أدى هذا إلى تحطيم قدرتى على التدبر ، وقررت أن أخاطر وأبقى ..

في هذه الليلة دخنا الغليون الذى يسبب الدوار ، وتحدثنا عنها ..

جاء الخميس ورحل ، وقرب الغروب جاء عامل منجم من الروّاد رحّب بى بحرارة ، وقال :

ـ « لقد مررت كى أسأل عن المدام الصغيرة ، ومتى ستعود ؟ »

قال مضيفى :

ـ « لدىّ خطاب منها .. هل تريد سماعه ؟ »

ـ « نعم .. لو لم تتضايق يا (هنرى) .. »

أخرج (هنرى) الخطاب من حافظته ، وقال إنه سيتجاوز بعض الأجزاء الخاصة ثم راح يقرأ .. كان قطعة من الأدب العاطفى المنعش ، وينتهى بتحيات حارة للأصدقاء والجيران ..

فما إن فرغ من القراءة حتى قال :

ـ « هلم يا (توم) .. أبعد يديك عن عينيك ! أنت سريع التأثر .. »

قال (توم) :

ـ « إننى عجوز وأى إحباط يجعلنى أبكى يا (هنرى).. حسبتها هى نفسها عندك فلم أجد إلا خطاباً .. »

ـ « الجميع يعرف أنها آتية السبت القادم .. »

ـ « السبت ؟ كيف نسيت ؟ كلنا نستعد لهذا .. سأذهب الآن ولن أعود إلا حين تكون هى فى الدار أيها العجوز .. »

وفى ساعة متأخرة من عصر الجمعة ، جاء عامل منجم مخضرم آخر من كوخه ، وقال :

ـ « إن الأطفال يرغبون فى أن يأتوا ليمرحوا مع (المدام) مساء السبت ، لو لم تكن مرهقة بعد الرحلة .. »

ـ « مرهقة ؟! اسمع يا رجل ! أنت تعرف أنها مستعدة للسهر ستة أسابيع من أجل أطفالك .. »

ثم إن القادم ـ ويدعى (جو) ـ طلب سماع خطابها ..

* * *

جاء عصر السبت ، ووجدت أننى أخرج ساعتى أكثر من اللازم ، فقال لى (هنرى) :

ـ « أنت تظنها ستتأخر .. أليس كذلك ؟ »

شعرت بالحرج ، فقلت إن هذه عادة عندى ، لكنه كان متوترًا بدوره ، واصطحبنى إلى بداية الطريق ليرمق المسافة عن بعد ، وقال :

ـ « أعرف أنها ستكون هنا فى التاسعة مساءً ، لكنى بدأت أقلق .. أشعر أن شيئًا قد حدث .. أنت تشعر بذلك أليس كذلك ؟ »

كلمته بخشونة ، فانكمش ونظر لى بحزن وخجل ..

جاء أحد المخضرمين الآخرين قبل المساء ، وطلب من (هنرى) أن يقرأ له الخطاب ، وراح يتحدث فى موضوعات مسلية محاولاً أن يبدد ذعر صاحبه ..

وقال له :

ـ « إنها وعدت بالمجىء فى التاسعة .. وهل خيبت أملك أو خذلتك من قبل يا (هنرى) ؟ لسوف تبرّ بوعدها .. هذا مؤكد كما أنك مولود .. »

وبعد قليل وصل (توم) و (جو) ، وراحت الأيدى تزين المنزل بالزهور .. وفى التاسعة قرر الرجال أن يعزفوا بآلات موسيقية أحضروها ، وكانت هذه الأدوات كمانًا صغيرًا و(بانجو) و(كلارينيت) ، وراحوا يعزفون موسيقا راقصة يضيفون لها إيقاعًا بأقدامهم ..

وعلى الباب وقف (هنرى) يرمق الطريق وجسده يرتجف من فرط معاناة عقلية .. لقد شرب مرارًا نخب صحة زوجته .. لكنه قلق ..

ومن جديد أفعم (جو) الأقداح ، ومددت يدى إلى أحدها ، لكن (جو) همس لى فى حزم :

ـ « دع هذا .. وخذ قدحًا آخر .. »

شرب (هنرى) قدحه ، ونظر إلى الساعة وقال :

ـ « ساعدونى .. أريد أن أرقد .. »

ساعدوه على الرقاد ـ وهو يترنح ـ كى ينام على الأريكة ، لكنه راح يتكلم كما يتكلم النائم :

ـ « أسمع صوت الخيول .. هل جاءوا ؟ »

قال (جو) :

- « لقد جاء (جيمى فاريش) ليقول إن المجموعة تأخرت ، لكنهم آتون .. إن حصانها يعرج لكن هذا لن يؤخرها أكثر من نصف ساعة .. »

- « أنا سعيد لأن مكروهًا لم يحدث .. »

وغرق فى النوم قبل أن تنتهى الكلمات ..

نزع الرجال ثيابه ، وتأهبوا للرحيل فصحت :

- « لا تذهبوا يا سادة ، إنها لا تعرفنى .. أنا غريب .. »

تبادلوا النظرات ، ثم قال (جو) :

- « هى ؟ المسكينة .. إنها ميتة منذ تسعة عشر عامًا .. »

- « ميتة ؟ »

- « هذا أو أسوأ .. لقد ذهبت لزيارة أهلها بعد ستة أشهر من الزواج ، وعلى بعد خمسة أميال من هنا هاجمها الهنود ، فى مساء السبت وهى عائدة ، ولم يسمع عنها أحد من وقتها .. »

- « وهل جن نتيجة لذلك ؟ »

- « لم ير لحظة عقل واحدة من ساعتها .. لكن

حالته تسوء فى الوقت ذاته من كل عام ، وعندها نبدأ فى التردد عليه ، ونشجعه ونسأله عن أخبارها ، ونزين البيت بالزهور ، فعلنا هذا تسع عشرة مرة .. فى أول عام كنا سبعة وعشرين ، لكن لم يبق منا الآن سوى ثلاثة ..

« لقد خدرناه وإلا سيصيبه هياج رهيب .. ولسوف تهدأ حالته غدًا ويعتقد أنها معه ، حتى تحين اللحظة ذاتها العام القادم ..

« رباه ! لقد كانت عزيزة علينا بحق ! »

* * *

هِبات الحياة الخمس

الفصل الأول

عند فجر الحياة جاءت جنية طيبة تحمل سلتها ، وقالت :

ـ « ها هى ذى الهبات .. خذ واحدة واترك الباقيات .. كن حذرًا وأحسن الاختيار .. ولتنتق بحكمة لأن واحدة منها ذات أهمية .. »

كانت العطايا خمسًا هى : الشهرة والحب والسرور والثروة والموت ..

فى حماسة قال الشاب :

ـ « لا داعى للاختيار .. »

واختار السرور ..

وانطلق إلى العالم بحثًا عن المسرات التى ينعم بها الشباب ، لكن كل واحدة منها كانت مخيبة للأمل وخاوية ، وكانت كل مسرة منها تملؤه خزيًا حين ترحل ، وفى النهاية قال :

ـ « يا لتلك الأعوام التى أضعتها ! لو كان بوسعى الاختيار لاخترت بحكمة .. »

* * *

الفصل الثانى

ظهرت الجنية وقالت :

ـ « أربع من الهبات باقية ، فاختر واحدة أخرى ، وتذكر أن الوقت يجرى وواحدة منها ثمينة .. »

فكر طويلاً ثم اختار الحبّ ، ولم ير الدموع التى ملأت عينى الجنية ..

بعد أعوام طويلة طويلة ، جلس الفتى فى منزل خاو أمام تابوت ، وقال لنفسه :

ـ « قد رحل الأحياء الواحد تلو الآخر وتركونى ، والآن ترقد هنا أعزهم وآخرهم .. لقد مرت بى كآبة تلو كآبة ، ومقابل كل ساعة من السعادة فإن الحب ـ ذلك التاجر الغادر ـ قد جعلنى أدفع ألف ساعة من الحزن ..

وإننى لأمقته من قلب قلبى .. »

* * *

الفصل الثالث

ـ « اختر ثانية .. »

كانت هذه هى الجنية تتكلم .. وأردفت :

ـ « لقد علمتك السنون الحكمة أو هكذا ينبغى أن يكون .. بقيت ثلاث هبات ، وواحدة منها ذات قيمة ، فتذكر واختر بعناية .. »

فكر الرجل قليلاً ثم اختار الشهرة ، فتنهدت الجنية ورحلت ..

مضت الأعوام ، وها هو ذا الرجل يجلس وحيدًا فى الظلام يفكر :

ـ « لقد ملأ اسمى العالم وامتدحه الجميع على كل لسان ، وراق لى هذا لفترة .. ألا ما أقصرها ! ثم جاء الحسد ثم الانتقاص من قدرى ثم الافتراء فالمقت .. ثم جاء الاتهام ، فالسخرية التى كانت بداية النهاية ، ثم جاءت الشفقة التى هى جنازة الشهرة ..

« إنها مرارة وشقاء الشهرة .. الشهرة هدف الأوحال فى ذروتها ، وهدف المقت والشفقة عند رحيلها .. »

* * *

الفصل الرابع

وجاء صوت الجنية تقول :

ـ « اختر ثانية .. لقد بقيت هبتان .. لا تيئس .. فى البداية كانت هبة ثمينة واحدة ، وهى ما زالت هناك .. »

قال الرجل :

ـ « إنها الثروة التى هى القوة ! لكم كنت أحمق ! هكذا تستحق الحياة أن تُعاش .. سأبذِر وأبهر العيون .. كل هؤلاء الساخرين سيزحفون فى الوحل أمامى ، وسيطعمون قلبى الجائع بجسدهم .. ستكون عندى كل المتع والذائذ .. كل مفاتن الجسد وكل مسرات الروح .. سأشترى كل شىء .. سأشترى الاحترام والإذعان والتقدير .. وكل مجد رخيص فى الحياة يمنحه لى سوق العالم بالغ التفاهة ..

« لقد أضعت كثيرًا من الوقت ، واخترت اختيارات خاطئة ، لكنى كنت جاهلاً .. »

وبعد ثلاثة أعوام جنس الرجل يرتجف فى غرفة على السطح ، هزيلاً شاحبًا أجوف العينين ، يرتدى الأسمال يمضغ كسرة خبز مفعفنًا :

ـ « سحقًا لهبات الحياة ! للسخريات والأكاذيب المزخرفة .. إنها ليست هبات بل هى قروض .. السعادة .. الحبّ .. الشهرة .. الثراء .. كلها أقنعة للحقائق الدائمة : الحزن .. الألم .. العار .. الفقر ..

« لقد قالت الجنية حقًّا .. لم يكن لديها سوى هبة واحدة ثمينة .. يا لتفاهة ورخص كل ما عرفت بالنسبة للهبة العزيزة اللطيفة ، التى تطوى تلك الآلام التى تضطهد الجسد ، والعار والأحزان اللاتى يأكلن القلب والروح .. تطويها فى نوم بلا أحلام .. إننى مرهق وأريد الراحة .. فلتجلبها لى ! »

* * *

الفصل الخامس

جاءت الجنية ومعها الهبات الأربع ، لكن (الموت) كان ناقصاً ، وقالت :

ـ « لقد أعطيته لطفل رضيع كان جاهلاً ، ووثق بى كى أختار له الاختيار الأفضل .. »

قال لها :

ـ « يا لتعاستى ! وماذا بقى لى أنا ؟ »

ـ « الشىء الذى لا يستحقه حتى من هو مثلك .. إنه ذلك الألم المشين للشيخوخة ! »

* * *

سيرة ذاتية ساخرة ..

ألح علىّ اثنان أو ثلاثة أن أكتب سيرتى الذاتية ، وقالوا إنهم سيقرءونها لو كان عندهم وقت فراغ ، فأذعنت لهذا الإلحاح الجماهيرى المحموم وها هى ذى قصة حياتى ..

إن بيتنا بيت نبيل له أصول عريقة ، وأقدم أجدادى الذين ينتمى لهم آل (توين) هو صديق للأسرة يحمل اسم (هيجنز) . كان هذا فى القرن الحادى عشر حين كان قومنا يعيشون فى (أبردين) بمقاطعة (كورك) بإنجلترا .. أما لماذا تنسب الأسرة كلها إلى اسم الأم بدلاً من اسم (هيجنز) فلغز لم يرغب أحد فى حله .. إنه سرّ قديم ساحر يجدر بنا أن نتركه وشأنه(*) .. إن كل الأسر العريقة تفعل ذلك ..

(*) المقال ساخر بالطبع ، لأن (مارك توين) اسم مستعار للكاتب كما قلنا فى المقدمة !



ألح على اثنان أو ثلاثة أن أكتب سيرتى الذاتية ، وقالوا إنهم سيقرءونها لو كان عندهم وقت فراغ ..

كان (آرثر توين) رجلا عظيم الشأن يستجدى المارة على الطريق فى زمن (ويليام روفوس) .. وفى سن الثلاثين دخل أحد الملاجئ الإنجليزية القديمة يُدعى (نيوجيت) ، ولم يعد من هناك .. »

أما (أوجستوس توين) ـ عام ١١٦٠ ـ فكان رجلاً مرحًا .. اعتاد أن يسن سيفه القديم ، ويتجه إلى مكان مظلم مناسب ، ويونجه فى عابرى السبيل كى يراهم يتقافزون .. كان كثير المرح مفطورًا على الدعابة ، لكنه تمادى بعض الشىء ..

وفى آخر مرة شوهد فيها يمارس هذه التسلية ، انتزع الحاكم أحد طرفيه ، وعلقه على مكان جميل عال فى (تمبلبار) حيث يسلى الناس ..

ثم لمائتى عام تظهر شجرة أسرتى مجموعة من الجنود النبلاء والرجال ذوى الأرواح الخلاقة .. كلهم كان يذهب للمعركة مغنيًا خلف الجيوش ، ثم يعود الجيش فيهرولون أمامه ..

فى القرن الخامس عشر كان لدينا (بوتوين) الذى سماه الناس (المتعلم) .. وكان يملك خطًا جميلاً ،

وكان بوسعه تقليد أى خط .. إلا أنه كلف مرة بتحطيم صخرة ضخمة ، وأدت خشونتها إلى تحطيم يده ، وقد استمتع بمهنة تحطيم الصخور بعد ذلك ، ومارسها لمدة اثنين وأربعين عاماً ، وقد مات فى أثناء العمل ..

ما كان ينتهى من عقد تكسير صخور ، حتى تعطيه الحكومة عقداً جديداً .. وكان رفاقه يحبونه ، وكان عضواً مهماً فى مجتمعهم الكريم .. الذى كان يطلق عليه Chain Gang (أى المكبلين بالسلاسل للعمل فى الأشغال الشاقة) ..

كان يقص شعره بعناية ، ويحب ارتداء الثياب المخططة ، وكان موته خسارة لوطنه لأنه كان محترفاً ..

بعد أعوام ظهر (جون مورجان توين) ، وقد جاء إلى البلاد مع (كولومبوس) عام ١٤٩٢ مسافراً على سفينته .. ويبدو أنه كان ضيق الخلق طيلة الرحلة ، وكان يطلب الرنجة الطازجة على الإفطار ، ولم يمر يوم لم يصعد فيه إلى ظهر السفينة ، ويشمخ بأنفه فى السماء مزمجراً ، قائلاً إنه متأكد من أن (كولومبوس) لا يعرف إلى أين هو ذاهب ، وبالتأكيد لم يذهب إلى هناك من قبل ..

وحين دوت الصرخة الخالدة : « الأرض ! » ، وحين التهبت الحماسة فى كل القلوب ، لم يتلألأ قلبه ..

لقد تأمل المشهد عبر المنظار المقرب المتسخ ، وقال :

ـ « فلتذهب الأرض إلى الجحيم .. إن هذا طوف ! »

وحين ركب هذا المسافر الغريب السفينة ، لم يكن معه سوى جريدة قديمة لف فيها منديلاً عليه حرفا (د . ج) ، وجورباً من القطن عليه حروف (ل . و . ج) ، وجورباً من الصوف عليه حروف (و . ن . ر) .. إلا أنه فى أثناء الرحلة ظل قلقاً بخصوص (متاعه) أكثر من قلق كل المسافرين مجتمعين ..

وفى العواصف كان عليهم أن يكمموه ، لأن صراخه بخصوص (متاعه) كان يجعلهم عاجزين عن سماع الأوامر ..

وحين رست السفينة كان (متاعه) الآن يتكون من ثلاثة صناديق ، لكنه أصر على أن (متاعه) قد سرق وصمم على تفتيش المسافرين .. كان هذا أكثر من اللازم لأنهم ألقوه فى البحر ..

وانتظروا أن يظهر ثانية ، لكن لم تبد منه فقاعة واحدة .. ولاحظوا فى دهشة أن مرساة السفينة اختفت ،

وأن حبل المرساة يتدلى وحده إلى الجانب ، ويمكننا أن نقرأ ما حدث في سجل السفينة :

« أدركنا أن هذا الراكب المزعج قد سرق المرساة .. وباعها إلى السكان المتوحشين داخل البلاد .. »

إلا أن هذا الجد كان يملك صفات نبيلة ، وتذكر الأذهان هنا بأنه كان أول رجل يهتم بعملية تحضر الهنود .. لقد بنى لهم سجنًا مريحًا ومشنقة ، وهنا تصير المذكرات أقل وضوحًا وصراحة .. وتنتهي فجأة بأن تذكر أن جدي هذا قد ذهب (ليرى المشنقة تؤدي عملها مع أول رجل أبيض في أمريكا) ، وهناك أصيب بشيء أدى لموته ..

أما الحفيد الأكبر له فكان شهيرًا عام ١٦٠٠ وشيء ما .. وقد اشتهر في الصحف باسم (الأدميرال العجوز) . كان يقود السفن السريعة مسلحًا ومعه رجال كثيرون . وقد أدى خدمة عظيمة في (تسريع) الحركة التجارية في البحر .. فالسفن التي كان يلاحقها كانت تقطع المحيط في وقت قياسي .. أما إذا تأخر أحد القوارب لسبب ما ، فإن سخطه يصير عظيمًا حتى

لا يتمالك نفسه . عندها كان يأسر القارب ، وينتظر أصحابه حتى يجيئوا ويطالبوا به ، لكنهم لم يفعلوا ذلك عادة ..

وكان يحاول إبعاد الكسل عن بحارة القارب الأسير بأن يرغمهم على الرياضة والسباحة ، وكان يسمي هذا بـ (المشي على اللوح الخشبي) ، وكان البحارة جميعًا يحبون هذه الرياضة ..

فإذا تأخر أصحاب القارب كان (الأدميرال) يحرقه حتى يضمن لهم مبلغ التأمين ..

أما (تشارلز هنري توين) فعاش في أواخر القرن السابع عشر ، وكان مبشرًا دينيًا متحمسًا ، وقد قام بهداية ستة عشر ألف واحد من الجزر الجنوبية ، وعلمهم أن ارتداء قلادة من أسنان الكلب حول العنق منظار ليست ثيابًا كافية للمجيء إلى دار العبادة .. وكان أتباعه يحبونه جدًا جدًا ، وحين انتهت جنازته (وخرجوا جميعًا من المطعم) كانت الدموع في عيونهم ، وقالوا إنهم أحبوه جدًا جدًا ، وتمنوا لو كان هناك المزيد منه ..

أما الصياد العظيم (توين) ، فأضاء منتصف القرن الثامن عشر ، وساعد الجنرال (برادوك) بكل قلبه كى يقاوم الطاغية (واشنطن) وكان هذا الجد هو الذى أطلق النار ١٧ مرة على ظهر (واشنطن) من وراء شجرة .. لكن القصص تقول إن الوغد كف عن إطلاق النار بعد الرصاصة السابعة عشرة ، لأنه افترض أن (واشنطن) تحميه السماء لأنها تدخره لهدف سام ، وهكذا لم يجرؤ على إطلاق المزيد .. وأنا أرى أن هذه القصص تخل بدقة التاريخ . إن ما قاله جدى هو :

ـ « لا جدوى (هيك) من هذا .. إن (واشنطن) (هيك) ثمل يترنح .. ولا يقف فترة تسمح للإنسان بالتصويب عليه بالرصاص (هيك) .. »

لهذا كف عن المحاولة بعد سبع عشرة طلقة ، وكان هذا سلوكًا متعقلاً جديرًا بالاحترام ..

إن نبوءته قد تحققت على كل حال ..

فى الواقع هناك فرع جانبى لشجرة أسرتى ، يمتاز أفراده بأنهم فى بحثهم عن الشهرة التى طالما طمننا إليها ، اختاروا الطريق السهل بأن ذهبوا إلى السجن بدلاً من أن يُشنقوا ..

ليس من الصواب حين تكتب سيرة ذاتية أن تتبع أجدادك إلى فترة قريبة من فترتك .. الأفضل أن تتكلم بإبهام وغموض عن جدك الكبير ، ثم تتجاهل ذكر كل من جاء بعده حتى تصل لنفسك ، وهذا ما أفعله الآن ..

ولدت دون أسنان وفى هذا تفوق على الملك (ريتشارد الثالث) ، لكنى ولدت دون حدبة على ظهرى أيضًا ، وفى هذا تفوقت عليه ..

كان أهلى غير فقراء ، ولم يشتهروا بالأمانة الشديدة ..

سيبدو تاريخ حياتى وديعًا جدًا إذا ما قورن بأسلافى ، لهذا ربما كان من الحكمة ألا أكتبه إلى أن يتم شنقى ..

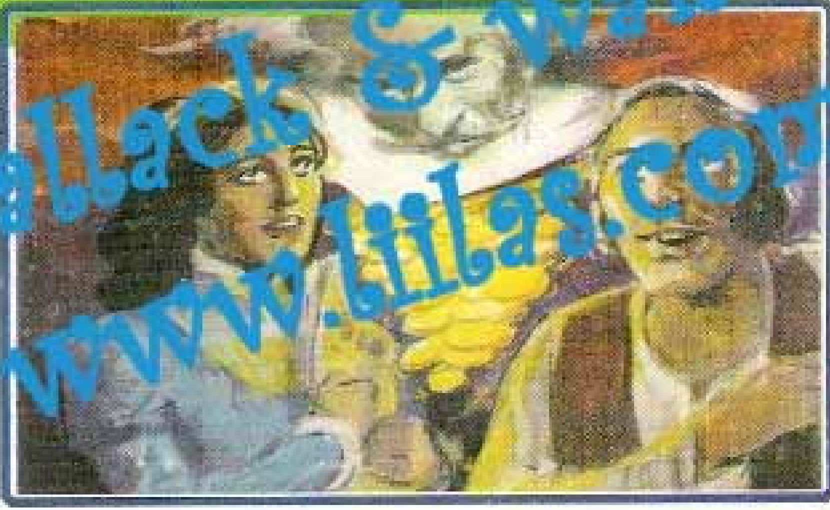
ولو أن باقى السير التى قرأتها حذت حذوى ، وتوقفت عند الأجداد حتى يحدث شىء كهذا للأحفاد ، لكان هذا شيئًا مفيدًا للجمهور الذى يقرأ ..

فما رأيك أنت ؟

(مارك توين)

* * *

روايات مصرية للجيب
مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية



وصية الثلاثين ألف دولار

هذه مجموعة من القصص وأشباه القصص، للساخر الأمريكى الأعظم الذى يصعب إسكاته: (مارك توين) ..

إنها خليط من الأفكار الذكية، والدعابة التى تدفعك إلى القهقهة، والمرارة التى تصل إلى حدّ البكاء .. إنها (الفكاهة الحزينة) أو (الحزن الضاحك) لو صح التعبيران ..

34

العدد القادم
العميل

ثمنها 4 جنيه

مطابع